
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الزاوية المصلوحية: ملابسات التأسيس وسياقاته

محمد المازوني*

مقدمة

شكل تأسيس الزاوية المصلوحية في بداية العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، تتويجا طبيعيا لعطاء الأمغاريين الصوفي والعلمي، منذ أن أسسوا بتيط رباطهم الشهير في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. يعتبر منتصف القرن التاسع الهجري نهاية لمرحلة المرابطة الأمغارية، هي المرحلة التي انسجمت خلالها المبادئ الصوفية الأمغارية مع طبيعة البيئة الدكالية وحاجيات مجتمعها المحلي انسجاما مطلقا، عكسته بوضوح روح الدعم البشري لصنهاجة أزمور ناحيتها[1].

استطعنا خلال هذه المرحلة أن نتلمس كيف أن تقلص وجود العنصر الصنهاجي واندماجه في بيئة المجتمع العربي سوف يؤثران بصورة واضحة على نشاط الأمغاريين الصوفي العلمي، بل كانا من العوامل الموضوعية لأزمة رباط تيط إخلائه من طرف شيوخه الأمغاريين.

تزامن هذا التحول في وضعية رباط تيط مع ظهور حركة صوفية واسعة عمت أرجاء المغرب بأكمله خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، تمثلت في تلك الدينامية المشهودة لحركة الزوايا وما ترتب على ظهورها من تثبيت لنشاط صوفي مجدد

---

* أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير.

1- بسبب هذا الارتباط سميت طائفتهم بالطائفة الصنهاجية. ابن قنفد (أبوالعباس أحمد الخطيب)، **أنس الفقير وعز الحقير**، الرباط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965. (نشر بعناية محمد الفاسي وأدولف فور)، ص 63.

ومؤسس على ضرورات المرحلة التاريخية، كانت النتيجة الحتمية لأزمة شاملة عاشتها البلاد منذ العهد المريني.

ارتبطت هذه الأزمة بمجمل أوضاع المغرب الداخلية وبالتهديدات الأجنبية ومضاعفاتها على حياة السكان وعلى وضعهم الأمني ومعتقداتهم وأنشطتهم الاقتصادية. وكان لغياب سلطة مركزية قوية الأثر الواضح في تعميق مخلفات الأزمة وإثارة الفتن والقلاقل، وانخراط العديد من القبائل المحلية في التعامل مع الأجانب والخضوع المباشر لمخططاتهم. فكانت نتيجة ذلك اختلال واضح في المبادلات التجارية والإضرار بمصالح الأهالي، وفقدان الاقتصاد المحلي لتوازنه التقليدي من جراء استقطاب الأجانب للجانب الأكبر من العائدات الفلاحية والتجارية.

ولعل من أبلغ مظاهر هذه الأزمة على الحياة الاجتماعية تلك المتصلة بالجانب الروحي والعقائدي، فقد شاعت الانحرافات وهيمنت البدع وتوالدت الطرق المبتدعة وسيطرت على عقول الناس، فتحول أشباه المتصوفة إلى سادات المجتمع والمتحكمين في مصائره بل وفي زعمائه، من شيوخ قبائل وكبار القوم.

بيد أنه بقدر ما عكست هذه الصورة المنحى السلبي الذي آلت إليه مكانة التصوف في ممارسة المغاربة، بقدر ما أفرزت في الوقت نفسه الحاجة لتجاوزها، إذ انبرت طرق تطهيرية لمحاربة ما أشاعته تلك الطرق المبتدعة من بدع وخرافات وشعوذة، معتمدة في نهجها على مبادئ السنة وروح الجهاد ومزاوجة فعلية في ممارستها بين العطاء الصوفي الخلاق ومحاربة المحتل.

من العوامل التي قوت عطاء هذه الطرق بساطة خطابها ووضوح مبادئها وقربها من تطلعات عامة الناس، وتعد الطريقة الجزولية أرقى نموذج لهذه الطرق، بحيث استطاعت أن تختزل كل هذا العطاء المتجدد. أو كما أراد لها صاحبها أن تكون«طريقة مجددة ومجتهدة ومجاهدة»[2].

بصرف النظر عن تعاليم الجزولي وتأثيرها في نفوس المغاربة، فإن صاحبها كان يمثل بفكره وممارسته رمزا لأزمة المجتمع بأكمله. فقد أدرك الإمام الجزولي بفكره الثاقب

2- حظيت شخصية الإمام الجزولي باهتمام الكثير من المؤرخين وكتاب التراجم والنسابة، وجاءت ترجمته وافية في مؤلفاتهم. ويبقى كتاب ممتع الأسماع للمهدي الفاسي أكثر المؤلفات عناية به.

بواطن الأزمة، فكيّف السلوك الصوفي المجرد إلى ممارسة فعلية، وبدل أن يبقي مريده مجرد متلق لتربية سلوكية روحية، حوله إلى مجاهد فعلي ضد المحتل ومحارب مؤمن، لتصحيح عقيدة الناس وتثبيت السنة على أصولها الصحيحة في نفوسهم.

لقد تحولت الطريقة الجزولية بفضل مؤسسها وأتباعه إلى حركة وطنية تجاوزت الانتساب القبلي للطوائف الصوفية السابقة، فلم نعد نسمع عن منتسب للطائفة الصنهاجية أوالشعيبية أوالحاحية[3]، بل انتسب لطريقة الجزولي أتباع من كل أصقاع المغرب، وشكلت مبادؤه الصوفية سلوكا عاما استوى فيه العالم والعامي.

ومن المؤشرات الدالة على هذا التحول في الانتماء الصوفي كون كتاب الإمام الجزولي **دلائل الخيرات** أضحى أكثر المصنفات تداولا وحفظا بين الناس بعد المصحف الكريم[4] وهوتحول ليس فقط في النظرة إلى الممارسة الصوفية فحسب، بل كذلك في الرمزية الثقافية والمجتمعية لهذه الطائفة، لذلك وجب النظر إلى الجزولية على أنها عطاء مجتمع بأكمله وليس عطاء جماعة بعينها.

إن ما ضمن للجزولية الاستمرارية والتأثير هو ذلك المزج الفعلي بين ما هو روحي وما هو دنيوي، الشيء الذي حولها من مجرد فاعل في النسيج الديني والمجتمعي إلى عامل سياسي حقيقي. فأتباع الجزولي سيتحولون فيما بعد إلى فرسان للتغيير على مستوى جماعاتهم وعلى صعيد المغرب بأكمله[5]، كما أن زواياهم المنتشرة في كل مكان أضحت بؤرا للتربية الصوفية وللعمل الجهادى.

لقد ولدت الحركة الجزولية وضعا صوفيا جديدا ونسيجا ثقافيا متميزا، جعل منها في نهاية القرن التاسع الهجري ركنا مكينا في ثقافة المجتمع، حتى أن من لم ينتسب للجزولي كان نشازا وخارج الجماعة. إن الجزولية بهذا المعنى ثورة صوفية تجديدية أقامت قطيعة بينة مع الأشكال الصوفية السابقة.

3- لمعرفة وضعية الطوائف الصوفية في المغرب قبل القرن 9 هـ يراجع: ابن قنفذ، أنس...م.س.

4- كتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، وكما يدل على ذلك عنوانه متضمن لذكر الصلوات على الرسول ﷺ وذكر أسمائه وفضائله. وقد طور المغاربة طريقة تناوله واستعراض أذكاره من خلال مجموعة من الفرق التي تخصصت في المديح، تعرف حاليا بأصحاب الدليل.

5- قدم الفاسي في ممتع الأسماع تفاصيل عن توزيع الطائفة الجزولية في سائر المناطق المغربية، ويلاحظ أن أغلب عناصر هذه الطائفة تمركزت في الشمال.

لم تكن مظاهر التجديد التي حملتها الجزولية نتاج تجربة ذاتية لمؤسسها فحسب، بل ارتقت إلى هذا المستوى من العطاء بفضل صلة سندها بسلسلة من الشيوخ المجتهدين الذين كان لبعضهم دور كبير في تجديد الفكر الصوفي الإسلامي، كالإمام أبي الحسن الشاذلي، الذي اعتبر البعض الطريقة الجزولية مجرد إحياء لمنهجه في التصوف وتجديدا مبسطا لفكره، والإمام أبي عبد الله محمد أمغار الصغير.

خلال رحلة محمد بن سليمان الجزولي الثانية إلى فاس، التقى بالإمام زروق وهو شاذلي المذهب، فسأله الجزولي عن شيخ واصل يحتدى به ويكون قدوته في السلوك والتربية، فأرشده إلى من كان يمثل في وقته رأس الشاذلية بالمغرب وأكثر شيوخها شهرة ودراية: محمد أمغار صاحب رباط تيط، حيث نزل به الجزولي ودخل بإمرة شيخه في فترة خلوة وتأمل وعبادة، قدرها المؤرخون بأربع عشرة سنة، ولم يخرج منها إلا بإشارة من شيخه بعد أن«أخذت الكرامات تصدر عنه»[6].

أولا, مرتكزات تأسيس الزاوية المصلوحية

1. التجربة الصوفية لأبي عبد الله بن أمغار الصغير ونهاية المرابطة الأمغارية

يعتبر الشيخ أبوعبد الله أمغار الصغير آخر شيوخ رباط تيط المبرزين وأكثرهم شهرة بعد جده محمد أمغار الكبير. ومع أننا نجهل الكثير عن سيرته وعلمه، إلا أن المتفق عليه بين سائر كتاب التراجم، أنه كان الحلقة الأوضح في سند الشاذلي للإمام الجزولي. وقد علق صاحب الممتع على هذا السند بقوله"ولست أعرف من هؤلاء الشيوخ أحدا سوى الشيخ أبي عبد الله أمغار"[7]، واعترف له أحمد بابا في"نيل الإبتهاج" بأنه كان"أوحد وقته"[8]. ونقل العربي الفاسي عن شيوخه أن الجزولي كثيرا ما كان يذكره باسم الشيخ في بعض ما جمع عنه من الكلام والمناقب[9].

يعود الفضل لأبي عبد الله أمغار في إعادة إحياء الطريقة الشاذلية بموطن صاحبها الأصلي، بعد أن شاع أمرها في أرض المشرق. وبتتبع سلسلة سند أبي عبد الله إلى أبي الحسن الشاذلي، نلاحظ تواترا متواصلا لشيوخ مشاهير أثروا الفكر الصوفي الإسلامي، كالإمام

6- الفاسي، الممتع، ص 11.

7- نفسه، ص 18.

8- التمبوكتي (أحمد بابا)، نيل **الابتهاج بتطريز الديباج**، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ، ص 317.

9- الفاسي (محمد العربي)، **مرآة المحاسن من أخبار أبي المحاسن**، طبعة حجرية فاسية، 1324 ه، ص 194.

القرافي وأبي العباس المرسي وشيوخ مجهولي الحال، كأبي عثمان سعيد الهرثناني وأبي زيد عبد الرحمان الرجراجي. وتبقى الميزة الغالبة على هذه السلسلة هي التنوع في مستوى الثقافة الصوفية للشيوخ واستمرارية تواصلها الموثق بالإمام الشاذلي [10].

تولى أبوعبد الله أمغار مشيخة رباط تيط بعد فترة طويلة من الركود في نشاطه الصوفي والعلمي وبداية فقدانه لنفوذه الروحي في مجاله القبلي الصنهاجي بعد أزمة داخلية عاشها الرباط منذ القرن السابع (هـ) / الثالث عشر (م).

من أبرز دواعي هذه الأزمة انحراف شيوخ رباط تيط المتأخرين عن المبادئ الأولى التي تأسس عليها التصوف الأمغاري، وتهافتهم وراء الخطط الدنيوية والامتيازات المادية التي شرعها المخزن المريني لكثير من الأسر الشريفة. فكان من نتائج ذلك احتواء رباطهم وإفراغه من أدائه الصوفي والعلمي وتحويله إلى حليف مرتبط بسياسة المخزن[11]، فتحول الكثير من الشيوخ الأمغاريين إلى مجرد موظفين بجرايات شهرية وعطاءات مستخلصة من مستفادات الدولة، سرعان ما فقدوها بعد تراجع المخزن المريني عن سياسة الاعتناء بالأشراف[12].

وتمثل المرحلة الممتدة من نهاية حكم أبي عنان (أواسط القرن السابع هـ / الثالث عشر م) إلى تولي أبي عبد الله أمغار شؤون رباط تيط (مطلع القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) فترة فراغ واضح في نشاط هذا الرباط.

لم تكن الوضعية الداخلية لرباط تيط ومضاعفات السياسة المرينية الجديدة العاملان الوحيدان وراء تولي أبي عبد الله أمغار زعامة الرباط الأمغاري، فقد تزامنت مع ظرفية الأزمة الشاملة التي شهدها المغرب خلال القرن التاسع (هـ) وآثارها بالخصوص على ساحل دكالة حيث تزايدت تهديدات الأجانب وتقوت مكانة المتعاملين معهم، وهي العوامل التي زادت من تعميق أزمة الرباط وحولته من مركز صوفي وعلمي إلى مجرد قلعة دفاعية.

10- عن إثبات هذا السند، يراجع: الفاسي، المصدر السابق.

11 - أورد الزموري في بهجة الناظرين وأنس الحاضرين العديد من الحوادث التي تكشف عن انخراط بني أمغار في السياسة الدينية المرينية.

12 - جاء تأليف كتاب»بهجة الناظرين»كمحاولة من مؤلفه لتذكير الحكام بمكانة الأمغاريين الصوفية وبانتمائهم لآل البيت وما وصلت إليه هذه المكانة من تدهور بعد تبدل السياسة المخزنية، فجاء الكتاب بمثابة دعوة استغاثة لأولي الأمر. وهو في هذه الاستغاثة يتوافق مع دواعي تأليف كتاب نصح ملوك الإسلام، لابن السكاك المكناسي.

أسهمت هذه الوضعية في تحويل العطاء الصوفي للأمغاريين بأن جعلوا وظائف رباطهم تساير ظروف الأزمة، لذلك لم تعد للرباط وظائف علمية أو صوفية، كما كان عليه الأمر في السابق، بل انصب اهتمام الشيخ أمغار على تصحيح العقيدة ورفع آثار الجهل والحث على محاربة الأجانب، وهي كما رأينا سلفا، نفس المبادئ التي قامت عليها الطريقة الجزولية.

بالرغم من شهرة أبي عبد الله أمغار وتأثيره في الوسط الدكالي وتكوينه لقاعدة واسعة من الأتباع، فإنه حفز أبناءه وأتباعه على إشهار أمرهم ونشر دعوته بعيدا عن الصقع الدكالي المهدد بالاحتلال المسيحي، ليضمنوا لطريقته السنية الاستمرار في بيئة أكثر ملاءمة وأضمن عطاءًا. كما كشفت خطوته هذه عن قناعته بضرورة تجاوز المرابطة -وهي أصلا جوهر الفعل الصوفي الأمغاري- التي لم تعـد الأسلوب الفعال لمواجهة ظروف الأزمة، لذلك سيؤسس أتباعه زوايا قائمة الذات وفق شروط جديدة في الممارسة الصوفية.

إن انتقال التصوف الأمغاري من حالة المرابطة إلى الزاوية يؤشر لتحول جوهري في عطاء هذه الأسرة الصوفية، والتي لم تذكر في المصادر الصوفية إلا وهي مقرونة بصفة الولاية والصلاح[13]، وسوف سيتعزز هذا التحول بانخراطها في الطريقة الشاذلية، وهي في اعتقادنا محاولة طبيعية للتكيف مع التجديد الذي حمله الفكـر الصوفي للإمام الشاذلي.

من الواضح أن تبني الأمغاريين للطريقة الشاذلية حقق لهم مكاسب عديدة، كان في مقدمتها استعادة رباطهم لسمعته القديمة، حيث أعاد إلى الأذهان مجهود شيوخه الأوائل. وهي مؤشرات دالة على تجاوزه لأزمة القرن السابع والثامن الهجريين، كما سمح لهم الانخراط في طريقة صوفية مشهورة -الشاذلية- بإخراج طائفتهم من الدائرة الصنهاجية المحدودة الأثر إلى آفاق أوسع، مما حتم عليهم بالضرورة تجديد مراسيم نهجهم وتطوير أدائهم الصوفي، الذي ظل إلى وقت قريب لصيقا بضرورات محلية ضيقة.

بتتبع خريطة مراكز استقرار أتباع أبي عبد الله أمغار نلاحظ أنها توزعت بين مناطق جغرافية متباعدة لا تربط بينها صلات واضحة[14]، فالإمام الجزولي وأحد أبناء أبي

13- يذكر ابن قنفد أن»هذا البيت أكبر بيت في المغرب في الصلاح لأنهم يتوارثونه كما يتوارث الناس المال»، ن.م، ص. 22.

14 - الزموري (عبد العظيم)، م.س..

عبد الله سيستقران بأفوغال ببلاد حاحا، والبقية من الأتباع ستتوزع بين سوس وتادلا وتافيلالت وجبل صاغرو بالأطلس الكبير الشرقي. وستتفرع عن هذه الزوايا مراكز أخرى ببلاد هنتيفة والحوز، وعن هذه الأخيرة ستنشأ فروع ثانوية عديدة بدكالة والشياظمة وآيت عطا وسجتانة.

وإذا كانت أغلب هذه الفروع ستعرف نشاطا ملحوظا بعد القرن العاشر(هـ)/ السادس عشر(م)، فإن زوايا أمغارية أخرى ستشتهر بأدوارها الصوفية والاجتماعية قبل انصرام القرن العاشر، مثل زاوية أسول بالأطلس وزاوية أفوغال ببلاد هنتيفة.

2. تأسيس زاوية أسول: أو الرجوع إلى الأصل الصنهاجي في التصوف الأمغاري

تأسست زاوية أسول على يد أبي يعقوب، أحد أبناء أبي عبد الله أمغار الستة حوالي منتصف القرن التاسع (هـ)/الخامس عشر الميلادي(م)، وتزامن تأسيسها مع آثار التهديد الأجنبي على التجارة الصحراوية وانحراف المبادلات التجارية عن الخط الشرقي الصحراوي في اتجاه السواحل الأطلسية التي كانت تتحكم فيها البرتغال، مما أدى إلى اختلال التوازن الاقتصادي الذي كان قائما في مناطق الجنوب الشرقي المغربي بين القبائل المستقرة والقبائل الرحلية.

ربط أحد الباحثين بين تأسيس زاوية أسول وتشييد قبائل جبل صاغرو بالأطلس الكبير الشرقي لمخزن جماعي للحبوب[15]، كوسيلة منها للتخفيف من آثار الأضرار التي لحقت بمبادلاتها التجارية وتهديد القبائل المعقلية الرحلية.

وسوف يتحول هذا المخزن الجماعي فيما بعد إلى أسلوب فعال للتنظيم الجماعي داخل قبائل الأطلس الكبير الشرقي والشمالي، خصوصا في حالات الأزمات التي ستعرفها تلك المناطق في المستقبل.

في ظل هذا التنظيم الجماعي ستحظى زاوية آسول بمكانة معنوية وباحترام وحماية العديد من القبائل الأطلسية ذات الوزن البشري، كآيت يزدي وآيت يحيى وآيت مرغاد وآيت يفلمان. كما منحت امتيازات عديدة لقاء أدوارها التحكيمية في النزاعات القبلية والحماية الروحية التي كانت توفرها لتلك القبائل الأمازيغية، وكذلك لدورها

15- Mezzine (M), *Le Tafilalet , Contribution à l'Histoire Du Maroc aux 17 et 18 éme siécle* , Pub. de la Faculté des Lettres , Rabat, 1987 , p 115.

الحساس في تسهيل عمليات تنقل الرحل بين مناطق الانتجاع الجبلية التي كانت تتحكم فيها قبائل مستقرة [16]. سوف تخولها هذه المكانة فيما بعد لعب أدوار سياسية بين المخزن العلوي وقبائل صنهاجة الأطلس[17].

إن ارتباط زاوية آسول بالنطاق الصنهاجي يحتاج منا إلى مزيد بحث، خصوصا أننا نعرف أن عصبية الأمغاريين إبان زعامتهم لرباط تيط ظلت مشكلة بالأساس من العنصر الصنهاجي، وأن ضعف هذا العنصر بناحية أزمور كان من بين العوامل المؤدية إلى تراجع مكانتهم الصوفية والروحية، وهو الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأن تأسيس زاوية أسول أملته في الدرجة الأولى اعتبارات الانتماء القبلي، وبالتالي كانت محاولة أبي يعقوب رغبة في استعادة دعم العصبية الصنهاجية من جديد وإضفاء أصالة متجددة على زاويته.

3. زاويةأغبالو: الامتداد في الوسط الأمازيغي

تأسست زاوية أغبالو في نهاية القرن التاسع(هـ) من طرف المولى حسين، حفيد أبي عبد الله أمغار الصغير، ويحتمل أن تكون في الأصل مجرد فرع لزاوية أفوغال المؤسسة من طرف المولى إبراهيم، أحد أبناء أبي عبدالله، ثم تحولت إلى زاوية مستقلة بنفسها بعد شيوع تأثير زاوية أسول بالأطلس الكبير الشرقي.

استطاعت زاوية أغبالو أن توسع مجال الأمغاريين في الوسط الأمازيغي لتصل به إلى قبائل الأطلس الكبير الأوسط، خصوصا بين قبائل هنتيفة وزناكة وآيت عتاب وآيت بوزيد.

بتتبع نطاق نفوذ هذه الزاوية نلاحظ أنه جاء مكملا لدائرة التأثير الأمغاري بالأطلس الكبير، وهو بالطبع مجال غلب عليه الوجود الأمازيغي.

شكل تأسيس كل من زاويتي أسول وأفوغال مؤشرا واضحا على استعادة الأسرة الأمغارية لنفوذها داخل المجال الأمازيغي، بل إن تأسيس زاوية تامصلوحت نفسها، وإن كان في وسط قبلي مختلط، لن يخرج عن هذا التوجه، إذ ظلت مقوماتها البشرية الأساسية مشكلة بالأساس من العنصر الأمازيغي.

16- نشير هنا إلى الوثائق المحلية التي اعتمد عليها العربي مزين في دراسته المحال عليها سابقا، والتي تكشف عن جوانب هامة من أدوار هذه الزاوية وخصوصا دور الحماية التي حظيت بها من طرف قبائل الجنوب الشرقي المغربي

17- DE LA CHAPELLE, «Le Sultan Moulay Ismail et les Berbères Sanhaja du Maroc Central », *Archives Marocaines*, vol 18, 1931.

4. نهاية رباط تيط وانتقال التجربة الصوفية الأمغارية نحو آفاق جديدة

اكتسى رباط تيط في السابق أهمية اقتصادية بالنسبة للبرتغال، فمحيطه كان مجالا منتجا للحبوب ومصدرا للأخشاب والأحجار الجيرية، إضافة إلى ما كان يمثله ميناؤها الصغير من إمكانيات لرسو السفن. لذلك حرص البرتغاليون على إدماجه في مخططاتهم الاستعمارية بساحل دكالة وفرضوا على سكانه الدخول في مبادلات تجارية إلزامية، أفضت في نهاية المطاف إلى إجبارهم على طلب الحماية البرتغالية[18]. وللحد من التهديد البرتغالي المتزايد بدأت السلطة الوطاسية تولي اهتماما خاصا لأوضاع دكالة، من قبيل تنظيم السلطان محمد البرتغالي لأربع حملات بين سنتي 920 و924(هـ) بغية تخليص السكان من الخضوع لسلطة البرتغال ومنعهم من دفع الإتاوات لهم[19].

ومادامت تيط أكثر المراكز الدكالية عرضة للتهديد، فقد أظهر السلطان الوطاسي حرصا بالغا للحيلولة دون خضوعها لسلطة البرتغال، لذلك سيجبر سكانها على الرحيل الإجباري عنها. وهي الحادثة التي ساقها الوزان صراحة في وصفه بالقول: «وفي عهد شبابي جاء ملك فاس بنفسه إلى تيط لينجد سكان دكالة، ولما لم يتمكن من الحصول على أية نتيجة أمر بشنق نصراني كان أمين المال ويهودي كان وسيطا»[20]. وسيرحل عقب ذلك سكان تيط إلى ناحية فاس عند قرية مهجورة على وادي النجا، بعد أن ضرب أسوارها وهدم بيوتها لئلا يعود إليها السكان ثانية[21].

من دون شك لم يكن هدف السلطان الوطاسي من تخريب مركز تيط مجرد رغبة في إفشال المخطط البرتغالي الرامي إلى استخدامه في أغراض استعمارية فحسب، بل من المحتمل أن تكون وراء خطوته دواعي أخرى، من قبيل السعي للحيلولة دون وصول المسيحيين إلى مركز صوفي ظل ينعم بالقداسة والطهر الروحي، بل مثل بالنسبة للدكاليين على مدى العصورالسابقة قلعة للصلاح. لذلك نقرأ في خطوة السلطان الوطاسي نية صريحة لإنقاذه مـن "دناسة الكفار" وبطبيعة الحال للحفاظ على سمعة أوليائه

18- رسالة مؤرخة في 31غشت 1513، المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، المجموعة البرتغالية، مجلد 1، ص 410.

19- الوزان (الحسن)، **وصف إفريقيا**، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،1980، ج1، ص 120.

20 -الوزان، ن.م، ص120.

21 -الوزان، ن.م، ص 126. أثناء نفس الحملة سيرحل السلطان الوطاسي كذلك سكان تارغة وأغلب سكان المدينة الغربية ومشنزاية وبني ماجر.

الروحية، في الوقت الذي لم يعد به زمن التخريب أي من الشيوخ الصوفيين ولا العلماء الحقيقيين[22].

ثانيا. مجال الزاوية المصلوحية

1. المعطيات البشرية لحوز مراكش

ارتبط الوضع البشري لحوز مراكش بالعديد من العوامل والمظاهر المختلفة، بعضها اكتسى صبغة سياسية محضة والبعض الآخر اتسم بمظهر اقتصادي وبيئي. ويبدو أنه من الصعب الحديث عن خريطة بشرية حوزية قارة المعالم، لذا من الأنسب الحديث عن خرائط بشرية توافق تشكلها مع سير الأحداث التاريخية التي عاشها الحوز خلال العصر الوسيط.

بصرف النظر عن المعطيات الاقتصادية والبيئية، نجد أن البنية البشرية الحوزية تأثرت بصورة واضحة بالعوامل السياسية، وبالضبط منذ أن شيد المرابطون بفحص الحوز عاصمة دولتهم مراكش - وهي خطوة استراتيجية من المرابطين - «للتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم في جبل درن»[23]، الأمر الذي يدفع إلى الاعتقاد بأن الحوز كان مجالا هامشيا وربما تكميليا بالنسبة للمجموعة المصمودية الجبلية.

ترتب على تأسيس العاصمة المرابطية بالحوز تحول مجاله إلى محطة بشرية أساسية تداخلت فيها فيما بعد العوامل السياسية بالمقومات القبلية، وإلى موضع حساس للتجاذب والتقاطع البشريين. حتى أضحت أصالته رهينة بتعاقب الدول الحاكمة، يساند من يكسب الرهان السياسي والعسكري تارة بالإكراه وتارة أخرى طواعية.

فالموحدون جعلوا من الحوز فحصا مصموديا بعد أن كان المرابطون قد جعلوه قبلهم مجالا صنهاجيا. وخلال عهد المرتضى الموحدي انضافت إلى مكوناته البشرية الأمازيغية فلول هلالية من عرب الخلط وسفيان[24].

22- تحدثت الوثائق البرتغالية عن شيوخ العرب، أهل البلاد وأصحاب السلطة والمتفاوضين من أجل الحماية.مصادر دوكاستر، المجموعة البرتغالية، مجلد 1، ص 410.

23- مؤلف مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، الدار البيضاء، دار النشر الحديثة، 1979، ص 16. (تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة).

24- اقتطعت أراضي على ضفاف وادي تانسيفت.

بانهيار الدولة الموحدية ستعرف الأوضاع البشرية بالحوز بعض الاستقرار النسبي، بسبب تحول مسرح الأحداث عن مراكش نحو عاصمة المرينيين الجديدة فاس. غير أن هذا الاحتجاب المؤقت سيفتح الحوز على مسلسل من التداخلات بين المكونات القبلية القائمة، مما ولد وضعا بشريا متأزما في غياب سلطة سياسية قوية.

من أهم المجموعات القبلية التي كان لها وجود فعلي بالحوز قبل قيام الدولة السعدية نجد كدميوة وكندافة وغيغاية وأوريكة ومسفيوة وسجتانة[25]، وهي مجموعات في أغلبها من الأطلس الكبير وبعضها لعب دورا فعالا في تواصل سهل الحوز بالجبل.

أما المجموعة العربية فوجودها بالحوز قبل القرن 10(هـ) 16(م) ظل محدودا ولم يؤثر في بنيته البشرية، على الأقل بسبب عاملين اثنين:

- ارتباط استقرار هذه المجموعة بالقوة العسكرية، حيث تمت الاستعانة بها من طرف القوى السياسية المتصارعة

- ضعف أعدادها الذي حال دون إمكانية تجذرها بالحوز.

أعقب وصول السعديين إلى الحكم (بداية القرن 10 هـ / 16 م) توافد عناصر بشرية جديدة على الحوز، مما زاد من تعقيد بنيته البشرية وأعطاها طابعا غير متجانس بالمرة. وهي النتيجة نفسها التي استخلصها مؤلـف»حوز مراكش«، بعد تعقب دقيق وعلمي للأشكال الإنتاجية والمظاهر البشرية المهيمنة «فأنماط الإنتاج متباينة بين الرعي والرعي المندمج مع الفلاحة وإنتاجية مختلطة بين حبوب - إنتاج سقوي في مقابل إنتاج بوري، وإنتاج سهلي في مقابل إنتاج جبلي»[26]. تنضاف إلى هذه التباينات الاختلافات اللسانية بين عربية وأمازيغية.

بالتأكيد لم تكن هذه الاختلافات إلا المحصلة التاريخية لاستعادة الحوز لمكانته السياسية كمسرح للأحداث، منذ أن استعادت عاصمته (مراكش) وضعها كإحدى حاضرتي المغرب، وبالتالي تحول الحوز من جديد إلى محطة للتقاطع والتجاذب البشريين بعد فترة الركود التي عاشها في زمن المرينيين والوطاسيين. وسيعرف الحوز من جديد في عهد السعديين فترات الازدهار التي كان عليها زمن الموحدين، خصوصا تلك المتعلقة بالإنجازات الفلاحية التي اندثرت بفعل الإهمال.

25- Pascon (P) , *LE Haouz de Marrakech* , Rabat, 1977, 2 Tomes , 1t , p151. 71
26- Ibid. T 1 , p 151.

فقبل دخول السعديين إلى مراكش كانت للوزان رحلات عديدة عبر الحوز سجل خلالها ملاحظات دقيقة عن مظاهر الإهمال والتسيب الذي طبع أوضاعه، ومن هذه الملاحظات تلك المتعلقة بالجوانب السياسية والاقتصادية. فقد استرعت انتباه الوزان حالة الفراغ السياسي وانعدام وجود زعامات محلية قوية قادرة على الحد من ظاهرة القلاقل والاضطرابات. فالهنتاتيون، وإن كانوا يمثلون المخزن الوطاسي اسميا، إلا أنه لم يكن بمقدورهم بسط سلطتهم أبعد من عاصمة الجنوب، بينما ترك الباقي لعبث من أسماهم الوزان بالأعراب.

أما المشاكل الاقتصادية والبشرية، فأجملها الوزان في الآثار التي خلفتها أعمال أولئك الأعراب على الحياة الاقتصادية، «فهم يأتون في فصول الحصاد ليأخذوا ما زرعه السكان»[27] مما جعل مصير العاصمة الموحدية رهينا بما كانت تقدمه لهم من إتاوات وضرائب، رغم وجود الحاكم الهنتاتي.

من خلال كلام الوزان لم نتبين من المقصود بالأعراب، وهل كان يقصد تلك الجماعات العربية التي استقرت بالحوز منذ القرن الثامن(هـ)؟ [28] أم تلك الوافدة من دكالة وحاحا (الشياظمة والحارث)؟ أم أن الأمر يعني جماعات غير منضبطة وجدت المجال مواتيا لفرض وجودها وسلطتها في غياب هياكل الدولة المركزية؟

إن الوضع الذي عاينه الوزان لم يكن حكرا على الحوز فقط، بل عرفته الكثير من مناطق الجنوب التي تأثرت أكثر من غيرها بظرفية القرن (9 هـ / 15 م) وخصوصا ما ترتب على احتلال السواحل المغربية من طرف الإيبيريين من اختلال في التوازنات الاقتصادية واختناق للمبادلات التقليدية، الأمر الذي أضر بمصالح القبائل الداخلية وتلك المستوطنة للسواحل.

من هذه القبائل قبائل بني معقل الصحراوية، التي زحفت نحو الحوز في أعقاب نجاح الدولة السعدية، والتي سيكون لها دور بارز في مجمل أحداثه المقبلة.

أجمعت العديد من الدراسات على أن وصول القبائل المعقلية من الصحراء مثل المظهر الحقيقي للأزمة التي عرفتها التجارة الصحراوية من جراء الاحتلال الأجنبي

27 - الوزان، ن.م، ج 1، ص 97.

28 - الوزان، ن.م، ج 1، ص 97. وتحديدا جماعات الخلط وسفيان.

للسواحل الجنوبية ومضاعفاته على اقتصاد سائر القبائل المنتشرة جنوبي الساقية الحمراء، بل يذهب البعض من الباحثين إلى اعتبار"الدعوة الجهادية التي تزعمها السعديون مجرد دافع لحرمان هذه القبائل من الرواج التجاري بين درعة والسنغال، وهو ما حتم تجميع كل القوات الجنوبية لطرد المسيحيين"[29].

أعقب استقرار القبائل المعقلية بالحوز انتعاش في الحركية البشرية من جديد، حيث أصبح للعنصر الجنوبي دور فعال في الأحداث المستقبلية التي ستعرفها هذه المنطقة. ففي ظرف وجيز تمكنت قبائل الرحامنة والأوداية واحمر من تطويق الحوز من حدوده الشمالية والدفع بالمجموعات المصمودية القديمة إلى المناطق الجبلية وفرض نمط القبائل الرحلية بالسهل. الأمر الذي ولد ازدواجية في نمط إنتاج السكان وتعارضا في مناطق الاستقرار بين الجبل الأمازيغي والسهل العربي. وبالتالي كانت المحصلة النهائية لذلك حسب البعض هي «أن أزمة الحوز تكمن في تلك الأعمال التخريبية التي اقترفتها عصابات عرب بني معقل»[30]. وهو على كل حال رأى مغال في التقدير ويثبت دوافع صاحبه المبنية على دوافع استعمارية بعيدة عن الموضوعية التاريخية.

2. تامصلوحت: المركز الموحدي المتجدد

2.1. تسمية الموقع

يعتبر كتاب "البيان" لابن عذاري أقدم مصدر تاريخي مغربي ورد فيه ذكر لموضع تامصلوحت، في إشارة عابرة لا تدل على أية قيمة جغرافية أو تاريخية[31]. وعنه سينقل ابن خلدون نفس الإشارة دون إضافة تذكر[32]، ولن يتكرر ذكره في المصادر اللاحقة إلا زمن السعديين، بعد أن تأسست به زاوية عبد الله بن حسين الأمغاري في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري.

يرجع الفضل في التعريف بموضع تامصلوحت إلى ابن عسكر الشفشاوني الذي خص صاحب مقامه الجديد بترجمة وافية، بحكم ما كان بينه وبين مؤسس الزاوية من

---

29 - Pascon , op.cit , T 1 , p 190.

30 - Devedun, (G), Marrakech des origines à 1912, Rabat, 1959, 2 Tomes, 1t, p 310.

31- ابن عذاري (أحمد المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، القسم الموحدي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار النجاح الجديدة، 1985 (تحقيق محمد زنيبر وآخرون)، ص 405.

32- ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت، دار الفكر، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 4 أجزاء (تحقيق علي عبد الواحد وافي).

صلات صوفية وعلمية[33]. وقد خالف ابن عسكر كلا من ابن عذاري وابن خلدون في كتابة رسم كلمة تامصلوحت، حيث وضعه بالصيغة المتداولة إلى اليوم، أي تامصلوحت[34]. وظلت بعده هذه الصيغة الأمازيعية للإسم شائعة في سائر المصادر المغربية، ولم يستثن منها سوى اجتهاد مؤرخ مراكش العباس بن إبراهيم، الذي تعمد تعريبها وجعلها مصلوحة [35].

من الواضح أن تسمية تامصلوحت هي صيغة أمازيغية تحيل على صلاح الموقع، ومن دون الدخول في المغزى اللساني لهذه التسمية وشيوع تداولها بصيغتها الأمازيغية، تبقى سمة الصلاح الملتصقة بالموضع مؤشرا دالا يحتاج إلى تبرير تاريخي مقنع، وذلك من خلال وضعه في سياق محلي وبارتباط بالمحيط الجغرافي القريب.

بالرجوع إلى موضع تامصلوحت قبل تأسيس الزاوية الأمغارية، نصادف وجود بعض المؤشرات البارزة التي تحيل على علاقة محتملة بين الموقع وبين صفة الصلاح التي حملها. من هذه المؤشرات وجود موقع أثري قديم يجاور موضع تامصلوحت الحالي، والذي شاع بين الناس أنه كان موضعا وثنيا. ثم وجود مؤشر ثان أكثر دلالة، يتمثل في وجود ضريح ولي مهجور يتوسط مركز تامصلوحت، يطلق عليه العامة "ضريح سيدي الحاج بوبراهيم".

إن تلازم وجود هذين المؤشرين كفيل بإعطائنا الإجابة المحتملة لدواعي حمل موضع تامصلوحت لصفة الصلاح، فكلاهما يعكس صورا متداخلة لما يمكن تسميته بتعارض المدنس (الموقع الأثري) بالمقدس (ضريح الولي).

2. 2. المعطيات الطبيعية للموقع

تحتل تامصلوحت موقعا وسطا بين رافدين من روافد وادي تانسيفت، هما غيغاية شرقا ونفيس غربا. ويعتبر موضعها من الناحية الطبغرافية منبسطا بين تلال

33- ابن عسكر (محمد بن علي الشفشاوني)، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاييخ القرن العاشر**، الرباط، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم 1، 1977، طبعة ثانية (تحقيق محمد حجي).

34- نفسه ص 107.

35- ابن ابراهيم (عباس المراكشي)، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، الرباط، المطبعة الملكية، 10 أجزاء، الطبعة الثانية، بين سنة 1974-1983، ج 7، ص 278.

أمناس في الجنوب[36] والتواء أزوفيد في الشمال. وقد حدد مؤلف "حوز مراكش" المساحة الإجمالية لهذا السهل المنخفض في عشرة آلاف هكتار[37].

يظهر انبساط سهل تامصلوحت في الكثير من المواقع، أهمها بالخصوص أكدال مولاي الحاج[38] والجنان الكبير[39]، ويبدو أكثر اتساعا كلما توجهنا إلى الجهة الجنوبية.

رغم هذا الانبساط الظاهر فإن مستويات السهل تعرف تباينا ملحوظا، ويعزى ذلك إلى كثرة التقطعات الناجمة عن السيول المائية المنجرفة من جبال سكتانة الجنوبية[40]، كما أن هذه السيول تأخذ اتجاهات مختلفة، بعضها ينتهي به المطاف عند وادي نفيس والبعض الآخر عند وادي غيغاية.

نظرا لهذه المعطيات الجغرافية، فإن موقع تامصلوحت يتعرض باستمرار لمخلفات هذه السيول المنجرفة، خصوصا خلال الفصل المطير. ويحتمل أن يكون لآثارها الزراعية صلة بالاستقرار البشري المبكر لموقع تامصلوحت، ولربما كانت من الدواعي الأساسية التي دفعت بعبد الله الغزواني[41] إلى تعيينه كموضع لاستقرار مريده عبد الله بن حسين.

من مخلفات هذه السيول توفر موقع تامصلوحت على العديد من التجمعات المائية الطبيعية، خصوصا في الجهة الجنوبية. وتأخذ هذه التجمعات تسمية محلية هي

36- توجد عند مشارف جبال سكتانة.

37- Pascon. op. Cit.tome 1, p, 268.

38 - يعرف كذلك نسبة إلى شيخ الزاوية المصلوحية محمد بن سعيد، الذي خصصنا له جزءا كبيرا من دراستنا. ومجال أكدال هذا يشتهر بكثرة مغروسات الزيتون (حوالي 13500 شجرة) ويطلق عليه السكان المحليون أكدال مولاي الحاج لتمييزه عن أكدال باحماد، الموجود هو بدوره بحوز مراكش.

39 - من أهم الأراضي المنتجة للزيتون بسهل تامصلوحت، وتقدر المغروسات به بحوالي 1000 شجرة. اعتمدنا في تحديد هذه المعطيات على المحفوظات العقارية ورسوم الملكية والوثائق الحبسية، إضافة إلى المعاينة المباشرة.

40 - تأخذ هذه السيول تسمية محلية هي الدروع، ومن أهمها دراع العسيري ودراع عين النساء.

41 - عبد الله بن عجال الغزواني، ويعرف محليا بمول القصور. أخذ عن عبد العزيز التباع (تلميذ محمد بن سليمان الجزولي) وعنه ورث زعامة الطائفة الجزولية. اشتهر بمجهوده الكبير لإنعاش البادية المغربية إبان فترة الأوبئة والمجاعات التي عرفها المغرب في بداية القرن العاشر الهجري، لذلك أجمع كل مؤرخي العهد السعدي على أنه ساهم في تقوية نفوذ السعديين من خلال تعبئة أتباعه على التعاطي للفلاحة وخدمة الأرض خصوصا بالمناطق الحوزية التي كانت تحت سيطرتهم. توفي في متمم الثلث الأول من القرن العاشر. تراجع ترجمته في: دوحة الناشر لابن عسكر الشفشاوني، ص 96 - 99.

الفيض، ومن أهمها فيض أمناس الذي تقدر مساحته بحوالي مائة كلم[42]، وفيض البهجة المرتبط بوادي البهجة (من الروافد الصغرى للغيغاية) والفيضة (في الجنوب) والمليز.

وتعتبر هذه التجمعات المائية ذات أهمية قصوى بالنسبة للفلاحة المحلية وبالخصوص زراعة الحبوب، وبفضلها ظهرت بعض التجمعات البشرية، كلعوينة ودار العين والحوز من هذه السيول نذكر شعبة بوكجدار التي تنطلق من سفوح سكتانة الشمالية في اتجاه تامصلوحت، حيث تعرف محليا بأسيف بوكجدرن وبواسطتها تتغذى مجموعة من الجنان والعراصي، وعند الجنوب الشرقي لتامصلوحت تلتقي بسيول إضافية مشكلة نطاق السهيب الغني بتربته وبجودة إنتاجه من الحبوب.

باستثناء هذه الشعبة تتجمع جنوبي تامصلوحت (عند موقع المليز) العديد من المجاري الصغيرة التي تندفع في اتجاه مركز تامصلوحت، من أهمها واد العراريم الذي يحتفظ بصبيب متواصل خلال فترة طويلة من السنة. بالإضافة إلى هذه المصادر المائية تنتشر بموضع تامصلوحت بعض العيون المائية، بعضها مكشوف (عين النساء) والبعض الآخر باطني (العين الداخلية)، ورغم هذه الوفرة الظاهرة في مصادر المياه إلا أن تامصلوحت ظلت تعاني من جفاف شبه دائم.

أكدت بعض الدراسات الهيدرولوجية أن الفرشة المائية بسهل تامصلوحت جد عميقة، حيث تصل في بعض الأحيان إلى ما يقارب الثلاثين مترا، الأمر الذي يفسر صعوبة سقي هذا السهل الواسع نسبيا، بل يعتقد بعض العارفين بجغرافيته أن هذه الصعوبة هي التي تفسر »الإهمال الذي عرفته المنطقة خلال ضعف السلطة المركزية بمراكش، مما أدى إلى رقود أرضها» [43].

أما الغطاء النباتي فلم يعد له وجود واضح يمكننا من تمثل خصوصيته في السابق، اللهم ما يؤكده الأهالي من أن السمة الغالبة عليه هي النباتات الشوكية، وخصوصا السدر منها. وهو نفس الغطاء الذي كان سائدا إبان استقرار عبد الله بن حسين بتامصلوحت في بداية القرن العاشر الهجري. أما اليوم فلا وجود للسدر بحكم الاجتثاث الذي عرفته المنطقة على امتداد أربعة قرون، وبفعل انتشار مغروسات الزيتون على نطاق واسع، والتي أضحت عنوان شهرة تامصلوحت بعد شهرة وليها.

42- Pascon ; op ;cit , p 103.
43 -Pascon ; op ;cit ; p 269.

3. تامصلوحت قبل تأسيس الزاوية الأمغارية

3.1. موقع الميسخة القديم

ارتبط تعمير موضع تامصلوحت بموقع الميسخة القديم، وتعود بعض أسباب هذا الارتباط إلى سيادة الاعتقاد - ومنذ القديم - بأن هذا الموقع هو في الأصل أرض غير طاهرة ولا يحق للمسلمين سكناها نظرا لما احتوته من أشكال ورسوم مجسمة، ظلت مرتبطة في اعتقاد الناس بمظاهر عهود الجاهلية والوثنية[44].

أثبتت بعض الدراسات الأركيولوجية[45] أن موقع الميسخة يدخل في سلسلة المواقع الأثرية القديمة التي شهدت استقرارا بشريا واستغلالا زراعيا منذ عصور ما قبل التاريخ، واستندت في تأكيد ذلك على ما تضمنته صخوره الشيستية الزرقاء من منحوتات تمثل بعض مظاهر الحياة البشرية[46]، وعلى مؤهلات الموقع الطبيعية من انبساط للسطح وموارد مائية. وهي مؤشرات مادية كافية لاستقطابه لساكنة قديمة، نجهل تاريخ وجودها وحدود تطورها وفترات تراجعها.

3. 2. من التعمير الموحدي إلى الخراب المريني

أمدنا كتاب"البيان"لابن عذاري ببعض المعلومات القليلة عن مركز تامصلوحت زمن الموحدين، منها أنه كان عامرا زمن المرتضى الموحدي (646 هـ / 665 هـ) بدليل أن وزير هذا الأخير، عبد الله بن يونس، التجأ إلى تامصلوحت، حين أخر عن الوزارة، لأنها كانت موضعه و"موضع أولاده وخدمه ورجاله"[47].

ما يزكي الاعتقاد بأن تامصلوحت كانت بها ساكنة مستقرة، كون ابن يونس المذكور سيظل مقيما بها زمنا طويلا من دون خوف أو مضايقة من الأمير الموحدي بل

44- تبينا لنا، من خلال رحلاتنا العديدة، أن أغلب المستجوبين لا يترددون في إظهار علامات الامتعاض والاشمئزاز حتى في التفكير في زيارة هذا الموقع، بيد أن المفارقة تبدواضحة حين وجدنا أن المزارعين لازالوا حريصين على استغلال أرضه المنبسطة والخصبة مقارنة بأرض تامصلوحت الجرداء.

45- Malhomme (J) ; Corpus des gravures rupestres du Grand Atlas ; Rabat ; 1959 ; p. 5 /7

46- من ضمن المنحوتات أشكال حيوانية وبعض الأسلحة البدائية.

47- ابن عذاري، ن.م، ص 402.

كان يدخل مراكش في كل يوم جمعة[48]، مما يثبت أنه كان يتوفر به على عصبة وسند قبلي وربما دعم روحي من ولي المقام به، سيدي بوبراهيم.

وسيدي بوبراهيم هذا، من الأولياء الذين استوطنوا تامصلوحت قبل العهد الموحدي، إذ تجمع الكثير من القرائن على كونه من قبيلة ركراكة المشهورة بالصلاح والولاية، ويحتمل أن يكون استقراره بتامصلوحت أمرا محتمل الحدوث بحكم الجوار الجغرافي. فمجال ركراكة زمن الموحدين، كان يحاذي من ناحية الغرب قبيلتين مصموديتين، هما إيلان وركونة، اللتان استوطنتا الحوز الأوسط. وباعتبار موقع تامصلوحت الوسطي بين هاتين القبيلتين، فمن غير المستبعد أن يحصل جواز بعض الركراكيين إليه مادامت دواعي الاستقرار به كانت متوفرة، ونقصد بها موقع الميسخة القديم بكل ما كان يرمز إليه من»وثنية وجهالة». وبالتالي يكون لتعمير موضع تامصلوحت في الحقبة الموحدية ما يبرره من الناحية التاريخية: فوجود ولي ركراكي اشتهرت قبيلته بالصلاح ومحاربة البدع، سيرفع عليه آثار الدناسة ويكسبه نوعا من القداسة والطهر. وهي في اعتقادنا الخطوة التي أكسبت موضع تامصلوحت تسمية تلائم حالة التجاوز هذه، وكذلك ستكون من الدواعي المحفزة لاستقطابه لساكنة بشرية.

من المؤشرات المادية على مظاهر التعمير الموحدي لموضع تامصلوحت وجود الكثير من معالم الاستغلال الزراعي وبعض الآثار العمرانية به، وخصوصا تلك المتعلقة ببقايا شبكة سقوية ونظام للري عبارة عن خطارات قديمة وبعض الآبار والعيون المندرسة. وهذه المنشآت هي التي ستتكفل الزاوية المصلوحية - فيما بعد - بإحيائها وإعادة استغلالها بتكليف من المخزن السعدي[49].

إذا كان الحوز، وضمنه جهة تامصلوحت، قد شهد في العهد الموحدي إنجاز مشاريع زراعية وسقوية هامة، فإنه في المقابل، عرف في عهد المرينيين والوطاسين إهمالا ملحوظا وركودا بينا، لدرجة عرفت معها الإنجازات الموحدية تقويضا تاما.

فقد أطلعنا الوزان في رحلته على مظاهر الحياة الاقتصادية ببادية مراكش قبل ظهور السعديين، فرغم رخاء السهل الممتد على مسافة ثلاثين ميلا بين أمزميز ومراكش وإنتاجه الجيد، فإن معظم باديته غير مأهول. والمراكز التي ذكرها في وصفه

48 - نفسه.

49 - هناك ظهير من أحمد المنصور الذهبي للشيخ سعيد بن أحمد بن عبد الله بن حسين. وثيقة خاصة.

هي تشرافت[50] وتومكلاست، التي لم تكن تضم أثناء مروره بها سوى ثلاثة قصور تكاد تكون غير مسكونة.

هذه القصور الثلاث هي التي جعلها فلوط FLOTTE (1529) في موضع تامصلوحت الحالي، وهو خطأ واضح في تقدير المسافة الموجودة بين الموقعين، فتومكلاست - وحسب الوزان - كانت تبعد عن مراكش بثلاثين ميلا، بينما لا تبعد تامصلوحت عن مراكش سوى بحوالي أربعة عشرة ميلا[51]. مع العلم أن موقع تامصلوحت لم يكن مجهولا في بداية القرن العاشر الهجري، كما أنه لم يحدث أن حمل تسمية مغايرة بدليل إشارة ابن عذاري السالفة الذكر، ومع ذلك لم يرد ذكره في وصف الوزان الذي جاب كل أطراف الحوز. من الواضح أن تامصلوحت كانت تدخل في عداد تلك البادية غير المأهولة التي تحدث عنها الوزان، وهي الحقيقة التي ستتأكد لاحقا حين استقر بها عبد الله بن حسين الأمغاري فوجدها «قرية خالية متعطشة ومقفرة وموحشة، لا أنيس بها»[52].

إن ما آل إليه مركز تامصلوحت من خراب وتدهور زمن المرينيين والوطاسيين لا يختلف عما لحق بأكثر المراكز الحوزية، فالإهمال المخزني واستبداد الأعراب وانعدام وجود سلطة سياسية مستحكمة، كلها عوامل أتت على البنية الاقتصادية والعمرانية التي تحققت زمن الموحدين. وبالتالي يكون مركز تامصلوحت - المركز القديم المتجدد - نموذجا حيا للمراكز الحوزية في علاقتها بالأحداث السياسية المتعاقبة وبما أفرزه الصراع بين الدول من تغيير في مواقع الارتكاز، وهو ما أفضى في نهاية المطاف إلى أزمة الجنوب برمته.

ثالثا. تأسيس الزاوية المصلوحية

1. ظرفية التأسيس

تزامن ظهور الحركة السعدية مع تبلور دينامية جديدة في الحياة الصوفية وبروز العديد من الزوايا المنبثقة عن الطريقة الجزولية، وما زاد من أهمية هذه الدينامية ذلك الانخراط الفعلي للحركة السعدية فيها، وهو ما شكل تجسيدا عمليا لمبادئ الإمام الجزولي وخصوصا ما اتصل منها بالجهاد.

---

50 - الوزان، ن.م، ص 100.

51 - تبعد تامصلوحت عن مراكش بالمقياس المتري بحوالي 19 كيلومترا.

52 - ابن عسكر، ن.م، ص 105.

كان انخراط السعديين المبكر في حركة الجهاد ضد البرتغاليين عاملا فعالا في استقطابهم لدعم شيوخ التصوف الجزوليين، ونجم عن انتصارات السعديين الأولى إقبال شعبي على حركتهم، فتحول الكثير من زعماء القبائل الجنوبية إلى صفهم ودعوتهم للأمراء السعديين لقيادة أعمال الجهاد في مناطقهم، كما حصل من قادة الشياظمة وحاحا ودكالة، في الوقت الذي أظهر فيه المخزن الوطاسي عجزا بينا في مواجهة الأجانب المحتلين للشواطئ المغربية وحماية السكان من تهديداتهم التي طالت أرواحهم وأقواتهم وعقيدتهم.

لقد ساهم اشتراك الحركة السعدية والعديد من شيوخ الزوايا في المنطلقات الجزولية في خلق انسجام فكري وتطابق في الأهداف، بين من أصبح عامة الناس ينظرون إليهم كمنقذين فعليين (السعديون) وبين من أشاعوا فيهم الحس الجهادي والتعبئة الروحية لتحصين دار الإسلام من الخطر المسيحي. فجاء تأثير هؤلاء الشيوخ بالغا في نفوس العامة، الذين قدروا مكانتهم وحسن سلوكهم الدائم «لتأمين السبل وحماية المظلومين»[53]، لذلك أحاطوهم بهالة من القداسة والإكبار جعلت غالبيتهم (العامة) طوع إرادتهم. وهي الصفات التي قوت من قيمة الدعم الذي شكلوه بالنسبة للدولة الناشئة وأضعف في المقابل الدولة الوطاسية القائمة التي أضحت ببناها السياسية والعسكرية الجوفاء، عاجزة عن مسايرة الأحداث واستقطاب المؤيدين لها من عامة الناس ومن جمهور المتصوفة.

تنضاف إلى ذلك آثار الأزمات الاقتصادية المترتبة على سنوات الجفاف والطاعون (926- 930 هـ/ 1520– 1524م) التي ساهمت بدورها في تقويض الحكم الوطاسي بالجنوب وتراجعه الملحوظ في الشمال. فقد افتقد المخزن الوطاسي لكل الوسائل القمينة بتطويق مضاعفات موجات القحط المتتالية وغلاء الأسعار وهلاك السكان في المناطق الشمالية، في الوقت الذي أظهر فيه السعديون في الجنوب كفاءة عالية لتجاوز آثار الأزمة، معتمدين في ذلك على القوة البشرية والروحية التي وفرها لهم شيوخ الزوايا من الطائفة الجزولية الذين وجدوا أنفسهم مطوقين معنويا وروحيا بالإرث الجزولي بعد أن نقل أحمد الأعرج رفات إمامهم (الجزولي) إلى عاصمته الجديدة مراكش، وهي الخطوة التي انطوت على رغبة السعديين في ضمان مباركة سريعة للتيار الصوفي لمشروعية إنجازاتهم السياسية والعسكرية.

---

53 - حجي (محمد)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ، 2، 1976، جزآن، ج1، ص 41.

لقد بلورت هذه الخطوة أسلوبا جديدا في التعاطي مع المؤسسة الدينية وذلك بجعلها حليفا سياسيا بالضرورة وبالفعل كذلك، وقد أثمرت هذه السياسية الجديدة في استقطاب أشهر مشايخ الجزولية آنذاك وفي مقدمتهم شيخ الطائفة عبد الله الغزواني، الذي ما إن سمع بنجاح السعديين في دخول مراكش حتى تخلى عن ولائه للوطاسيين لينضم إلى صف المتصوفة الجزوليين المساندين للأمير السعدي في مقاومته لحصار مراكش من طرف الأمير الوطاسي.

لم تكن هذه المساندة مجرد دعم سياسي عادي بل تجاوزته لتعكس مدى التجاوب الذي حصل بين الجزوليين والحركة السعدية الناشئة، وهو التجاوب الذي أملته روح الإنسجام الفكري بين الطرفين. وسوف يتقوى بانخراط الشيوخ الجزوليين في مجهود السعديين الاقتصادي للرفع من آثار الجفاف والقحط والأوبئة، وذلك بتعبئتهم للسكان قصد إنعاش البوادي وإحياء موات الأرض وخلق مشاريع سقوية. وهي المجهودات التي أثمرت في المناطق التي كانت تحت سيطرة السعديين.

ويبقى مثال شيخ الطائفة الجزولية عبد الله الغزواني أصدق نموذج لهذا الانخراط الفعال، فقد عرف عنه دأبه الكبير»في الحركة في أسباب الحراثة واستخراج المياه»[54]، بحيث ظلت فاس الوطاسية تذكر له حسن صنيعه أيام الجفاف، والمتمثل في بنائه لساقية كبيرة انطلاقا من وادي اللبن بين سنتي925 – 927 هـ / 1519– 1521م.

لم يكن دأب الغزواني على الحراثة والسقي لتفسره الدواعي الصوفية المجردة، بل أبان عن إدراكه لضرورة توظيف السلوك الصوفي لمواجهة ما كان يشكل في وقته أكبر التحديات للمجتمع المغربي، ونعني بذلك مخلفات الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية وما ترتب عليها من نتائج سلبية على الوضع البشري. لذلك جاءت مواهب الغزواني الصوفية لتعكس حرصه على خدمة الأرض وإحياء مواتها ومد القنوات بها، بل حولت مريديه إلى مجرد مزارعين ملزمين بأشغال الأرض أكثر من منقطعين عن الخلق. ولتأكيد هذا المنحى الواقعي جعل الغزواني من الفلاحة في خدمة الأرض شرطا ضروريا لاستقامة سلوك المريد واكتمال حاله، بل إنه لم يكن يختار لهم غير المواقع المتضررة من آثار الكوارث لتكون مراكز لتأسيس زواياهم.

54 - ابن عسكر، دوحة الناشر، م.ن.ص. 96.

من هذه المواقع مركز تامصلوحت الموحدي الذي اختاره الغزواني كموضع لزاوية عبد الله بن حسين الأمغاري، بل وتعمد في تحديده له تبيان دواعي الاختيار "إحياء الأرض وعمارتها"[55].

لم تكن الزوايا المؤسسة في الحوز في الثلث الأخير من القرن 10 هـ/ 16م لتخرج عن هذا التوجه في الاختيار، فكلها اشتركت في وظائف إنعاش البادية وإحياء العمران وإعادة استغلال الشبكة المائية الموحدية[56]. الأمر الذي جعل قضية الأرض تشكل إحدى أبرز اهتمامات الصوفية في هذا العصر ومقياسا لنجاح عطائهم الصوفي. وبذلك أدرك صوفية الحوز قبل غيرهم، أبعاد الأزمة الاقتصادية على مجمل مناحي المجتمع، لذلك ندرك لماذا سعوا لتجاوز الوظائف الصوفية التقليدية وتكييف عطائهم وفق حاجيات الظرف وضرورات المرحلة.

فشيخ الزاوية، وبالرغم من ممارسته لسلطته الروحية، أضحى قدوة لأتباعه في ممارسة الزراعة والاشتغال بالأرض، بل غالبا ما تقلصت المسافة بين الشيخ والمريد وأضحت الروابط الصوفية الصارمة منعدمة، لتحل محلها روابط أكثر واقعية لم نعد نميز فيها بين من كان شيخا صاحب بركة وعطاء فياض ومريد مسلوب الإرادة، بل إن هذا الأخير لم يكن لينظر إليه سوى كمزارع أو كخادم أو كحطاب ..."[57].

لكن هذه الصورة المبسطة لعلاقة الشيخ بمريده لم تكن لتنزع عن الأول قدرته المعنوية والروحية في توجيه عطاء الثاني، فمواهب المريد لم تعد تقاس بما تحصل عليه من تربية وسر وبركة فحسب بل كذلك بعطائه في خدمة الأرض. وكثيرا ما عزا بعض المريدين فلاحهم في خدمة الأرض إلى بركة شيخهم الظاهرة والباطنة، بل إن بعضهم أرجع سر نجاحه إلى ما تحصل عليه من حكم شيخه الخفي وكراماته[58]، وهي الكرامات التي ستستثمر فيما بعد من طرف المريد بعد أن يتحول إلى شيخ صاحب زاوية وسر.

55- نفسه، ص 105.

56- نموذج زاوية أبي عمر القسطلاني، تراجع ترجمته في الدوحة، ص 106.

57 -كما هو حال عبد الله بن حسين مع شيخه الغزواني.

58 -من ذلك ما اشتهر به عبد الله بن حسين من أن سر كراماته العديدة يعود إلى شيخه الذي منحه الحكم على الطير المؤذي والمرأة العاقر. تراجع تفاصيل ذلك في: دوحة الناشر لابن عسكر، م.س. ص 104 - 107.

2. الشيخ المؤسس[59]

نسجل في البداية أن معلوماتنا عن مؤسس الزاوية المصلوحية عبد الله بن حسين في المصادر المغربية هي مجرد إشارات ضنينة وإفادات متفرقة لم ترق - في أي من المصادر المعتمدة - إلى مستوى ترجمة مقنعة عن حياته، فقد ظل معتمد كل من ترجم لعبد الله بن حسين مصدرا واحدا ووحيدا، ألا وهو دوحة الناشر لابن عسكر الشفشاوني. ولتجاوز هذا النقص البين في معلوماتنا، ارتأينا الرجوع إلى المصدر المحلي، وتحديدا الروايات المتداولة إلى اليوم،[60] لعلنا نجد فيها ما يسد النقص الحاصل في المصادر المكتوبة ويمنحنا إمكانية تكوين صورة تقريبية عن مؤسس هذه الزاوية.

بيد أن الاعتماد على هذه المصادر لن يكون ذا جدوى إذا لم تخضع لعملية نقد وفحص دقيقين، وهو ما التزمنا به منذ البداية، سواء من خلال فحص مضامين هذه الروايات أو فيما يتصل بمصداقيتها التاريخية. ومع ذلك نعترف بأن استفادتنا من المنتقى لم تتعد ما اعتمدناه للاستئناس والمقارنة، وفي أقصى الحدود تعويض النقص الحاصل في المصادر المكتوبة[61].

استخلصنا من خلال مقارنة أولية بين المصادر المكتوبة والمحلية تطابقا فيما يتعلق بتحديد هوية الشيخ المؤسس وأصوله الأسرية ومنطلق زاويته، ولم نتبين الاختلاف فيما بينها إلا فيما له صلة ببعض الجزئيات المتعلقة بظروف استقراره بتامصلوحت، وهي المعلومات التي جاءت وافية في الروايات المحلية والتي يمكن توظيفها - بعد فحصها - لمعرفة الجوانب الغامضة من حياة عبد الله بن حسين.

وحتى نضمن لعملنا معالجة موضوعية، ارتأينا عرض مضمون المصدر المكتوب وما وافتنا به الروايات المحلية من إفادات، مع إجراء مقارنة بينهما.

---

59 - بعض من ترجم له، ابن عسكر، ن.م، ص 107-104، الفاسي، مرآة المحاسن، م.س، ص 206. التمنارتي (عبد الرحمان)، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخ.خ.ع.ر - د 1420، ورقة 23. الفاسي (عبد الرحمان)، ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، مخ.خ.ع.ر - ح 2627، ص 89 -90. الفاسي (محمد المهدي)، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من أتباع، ط.ح، 1305، ص 56 - 58. الفضيلي (أبوالعلاء)، ن.م، ج 2، ص 147. ابن المؤقت (محمد المراكشي)، السعادة الأبدية في التعريف بأهل الحضرة المراكشية، طبعة الدار البيضاء، 1968، ط.ح، د.ت، في جزئين، ص 106 - 108.ابن إبراهيم، ن.م، ج 7، ص 278 - 286.

60 - وهي أهم ما حفظته ذاكرة أبناء الشيخ المؤسس.

61 - من الملاحظات التي سجلناها أثناء استجواب بعض أبناء الزاوية، طغيان ذاتية الرواة وضبابية المعلومات، فضلا عن الخلط الزمني والنظر إلى تاريخ الزاوية من منظار الواقع الحالي، حيث لم يعد لها من الشهرة إلا الذكريات.

أ. رواية ابن عسكر: معتمد المصادر المكتوبة

تكمن قيمة هذه الرواية في الجوانب التالية:

- صلة صاحبها (ابن عسكر) بالشيخ المؤسس: فقد تتلمذ المؤلف على يد عبد الله بن حسين وتواصلت صلته به وبزاويته مدة طويلة، وفي ذلك يقول: «كانت بيني وبين الشيخ مودة راسخة ومحبة شامخة، ورأيت له بركات واستفدت منه دعوات»[62].

- إلمامه الكبير بحال الشيخ وبتصوفه وعلمه،"وبالجملة فمناقبه كثيرة لا تحصى ولو تتبعناها لكانت تستدعي إلى ديوان مستقل، ولقد رأيت منها جملة"[63].

- اعتماده في تدوين أخبار الزاوية على المعاينة الشخصية وعلى صحبته الطويلة لخلف الشيخ المؤسس (أحمد بن عبد الله بن حسين)، حيث قضى بالزاوية المصلوحية مدة طويلة مكنته من معاينة التطورات التي عرفتها بعد وفاة المؤسس، ومن جملتها وقوفه عند كثرة الوافدين عليها والزائرين لمواسمها[64].

ب. تشخيص الرواية

ـ تعيين موضع الزاوية

"لما مر الشيخ أبو عبد الله الغزواني بضريح الشيخ أبي إبراهيم المدفون بقرية تامصلوحت (...) والقرية المذكورة خالية متعطشة لا ماء بها (...) فالتفت إليه (عبد الله بن حسين) الشيخ وقال له: يا عبد الله هذا موضعك وإن الله يحيي عمرانه على يديك، فانزل بأهلك وولدك به"[65].

1. ـ سلطة الولاية على المقام

بعد تعيين قرية تامصلوحت كموضع لتأسيس الزاوية استأذن المريد المبهور من شيخه التفضل بمنحه سلطة الولاية على المقام، أو كما سماها ابن عسكر"سببا استعين به على هذا الشأن"، فجعل له الشيخ بركة "الحكم على كل طير يؤذي، فلا يدعى إليك

62- ابن عسكر، ن.م، ص 107.

63- نفسه.

64-«ولقد حضرت عنده بزاوية أبيه في بعض المواسم فرأيت العجب من ازدحام الخلق عليه وكثرة الوفود، وقد ذبح لهم بين يوم وليلة سبعمائة شاة من الغنم ومائتين من البقر ونحو عشرين من الإبل (...) فآل عدد من حضر اثنا عشر ألفا ونيف وخمسمائة». نفسه.

65- ابن عسكر، ن.م.ص.

طير يؤذي إلا أجاب، وأن الله جعل لك حكمة في المرأة العقيمة أنها تلد إذا أكلت طعاما مسته يدك"[66]، فألزمه بالإقامة بالمكان لأن الله سينفع به الناس.

ـ غربة المريد عن المكان

عكستها حالة الخوف والوحشة التي انتابت المريد وأسرته بمجرد رحيل الشيخ عنهم "فاستوحشت أنا (أحمد بن عبد الله بن حسين) وأمي، وقلت هذا تغرير، فقال لنا من كان في كفالة أولياء الله لا يخاف شيئا"[67]. ولم تنحصر غربة المؤسس عن موضع زاويته بل امتدت إلى مراكش نفسها، حيث لم يكن له بها سابق معرفة سوى بعض صحبة شيخه من أمثال الشيخ أبي الحسن بن أبـي القاسم[68].

ج. الرواية المحلية

سنعرض فقط لتلك الجزئيات الإضافية التي لم يرد لها ذكر في دوحة الناشر، خصوصا وأن بعضها يكتسي قيمة تاريخية قد تساعدنا على فهم أوليات الزاوية وسبل توطينها في المجال المحلي، والذي قلنا إنه كان غريبا عن المؤسس.

ـ علاقة المؤسس بشيخه

أقرت كل الروايات بأن عبد الله بن حسين كان مجرد حطاب يعمل تحت إمرة شيخه، بيد أنه كان أكثر خدامه وفاءا وإتقانا لعمله.

ـ دواعي إشهار أمر المريد

جاءت هذه الدواعي متضمنة في رواية فريدة تتحدث عن نهم المريد المبالغ فيه، حين استغل مناسبة اجتماع شيخه بجمع من الصوفية الكبار ليلتهم كل ما أعد لهم من طعام (الكسكس)، وأمام ذهول الجميع صاح شيخ الطائفة الجزولية (عبد الله الغزواني) في وجه مريده بالتوقف عندما بلغ ما التهمه من اللقمات ستا وستين لقمة، ليعلن أمام الملأ بأن"مريده قد بلغ المراد وكمل حاله". وهو إيذان بإعلان أمره، فسماه "بالشريف صاحب الست والستين حكمة".

---

66 -نفسه.

67 -نفسه.

68 -تراجع ترجمته في الدوحة لابن عسكر، ص 101.

- صلة المؤسس بموضع الزاوية

تجمع الروايات المحلية على أن عبد الله بن حسين لم يكن غريبا عن محيط تامصلوحت، فقبل اتصاله بالغزواني كان مقيما بمنطقة مجاورة لتامصلوحت تعرف بالغنانمة حيث قضى بها ردحا من الزمان ليعود بعد ذلك إلى زاوية أبيه بأغبالو لاستكمال تربيته الصوفية، وخلال رحيل الغزواني عن فاس في اتجاه مراكش، اصطحب معه عبد الله بن حسين.

- صعوبة التكيف مع الوسط المحلي

تمثلت في نزاع بين المؤسس وأحد أولياء قبيلة سجتانة المجاورة لتامصلوحت حول قطعة أرض ضمها عبد الله بن حسين إلى ممتلكات زاويته، بينما ادعى الولي السجتاني أنها تدخل في نطاق نفوذ قبيلته. وتذكر الرواية أن الولي السجتاني أشاع بين القبائل أن موضع تامصلوحت الموحش لن يعمر أبدا وسيبقى خلاء كما كان، أو كما وصفه الشيخ أبو الحسن بن أبي القاسم بالقبر[69]. بعد استشارة المؤسس لشيخه أمره بالرد والتشييع بالولي السجتاني: "قل له إن تامصلوحت تخلى وتعمر أما دوار الحجار (موطن الولي السجتاني) فإنه يخلى ولن يعمر"[70]. وتؤكد نفس الرواية صدق فراسة الغزواني، حيث تحول دوار الحجار إلى خلاء مقفر، بينما انتعشت تامصلوحت وأصبحت عامرة ومزدهرة وظلت كذلك.

استخلاص بعض النتائج بمقارنة المصادر السابقة

سجلنا وجود تطابق واضح بين المصدر المكتوب والرواية المحلية فيما يتعلق بشخصية المؤسس، فكلاهما أثبت انتسابه لأمغاريي تيط وبالضبط لفرعهم المستقر بأغبالو من بلاد هنتيفة، حيث أسس بها أحد أبناء أبي عبد الله أمغار الصغير زاوية تمكنت في ظرف وجيز من اكتساب شهرة ونفوذ بين قبائل الأطلس الكبير الأوسط وعنها تفرعت زاوية صغرى بمنطقة بزو المجاورة لها، ومن هذا الفرع ظهرت شخصية عبد الله بن حسين.

بيد أن المصادر السابقة لم تقدم لنا أية معلومات عن حياة المؤسس بهذه الزاوية، باستثناء أخذه لأوليات تعليمه على يد والده المولى حسين، صاحب زاوية بزو. وستظل

69 - ابن عسكر، ن.م، ص 106.

70 - لازالت هذه القولة مأثورة لدى المصلوحيين إلى اليوم، واستقيناها من أفواه الرواة وهي منظومة.

شخصية ابنه مغمورة إلى حين ظهورها ملازمة للشيخ الغزواني، وهي الصحبة التي نجهل ظروفها ودواعي اتصال الرجلين.

أمام انعدام أية قرينة ثابتة، لم يكن بوسعنا سوى التكهن وترجيح بعض الاحتمالات لتبيان دواعي الاتصال تلك، منها احتمال مرور الغزواني أثناء رحيله عن فاس، عبر زاوية بزو التي توجد ضمن المسار التقليدي فاس - مراكش، واتصاله هناك بعبد الله بن حسين المنتسب إلى هذه الزاوية ذات الإشعاع المحلي. كما أن ذكرى الأمغاريين ظلت حاضرة في قلوب الجزوليين باعتبار مشيخة أحدهم (أمغار الصغير) للإمام محمد بن سليمان الجزولي.

فمن غير المستبعد أن يكون مرور الغزواني بهذه الزاوية الأمغارية بمثابة نوع من الاعتراف لهم بهذا الجميل الروحي والتبرك بفضلهم. وسوف تتأكد هذه الحقيقة لاحقا حين خص الغزواني عبد الله بن حسين بعناية خاصة وقدمه على أقرانه من المريدين بأن يسر له سبل إعلان أمره دون مشقة أو عناء.

فقد أورد الحلفاوي في «شمس المعرفة»[71]حديثا سجاليا بين ثلاثة من أقطاب التصوف السعدي، وهم عبد الكريم الفلاح[72] وعلي بلقاسم أبي سجدة[73] وشيخ الطائفة عبد الله الغزواني، في موضوع المريد وشروط إشهار أمره وإعلان حاله، فتكلم كل واحد محددا هذه الشروط وفق منهجه الصوفي. فرأى أبو سجدة أن حال صاحبه لا يستقيم «حتى تبيض لحيته فيظهر حاله»[74]، أما الغزواني فلم يتردد في إشهار أمر صاحبه بالتعريف فعينه بالإسم والصفة «عبد الله بن حسين، فكلما تعبنا فيه يدركه من غير مشقة تناله في ذلك ولا تكليف»[75]. قد يكون هذا التقدير هو ما عبرت عنه الرواية المحلية بصيغة عجائبية في حادثة الستة والستين لقمة المشار إليها سلفا.

من دون شك كان لعبد الله الغزواني دور في تثبيت مكانة عبد الله بن حسين بين جماعة المتصوفة، ويحتمل أن تكون لصلته بأمغاريي تيط أثر في هذا التثبيت، مما يحمل على الاعتقاد بأن إقرار مريد حديث العهد نسبيا بعالم كبار الصوفية[76] بجوار

71 - الحلفاوي (قاسم بن أحمد المراكشي)، **شمس المعرفة في سيرة غوث المتصوفة**، م.خ.ع -د 1720.

72 - تراجع ترجمته في: ابن عسكر، ن.م، ص 100.

73 - السابق الذكر.

74 - ابن ابراهيم، ن.م، ج 8، ص 246.

75 - نفسه.

76 - عكس ما تصوره أبي سجدة الذي اشترط في المريد بياض لحيته لكي يأذن له بإعلان أمره.

كعبة المتصوفة آنذاك(مراكش) لم يكن القصد منه سوى دمج الإرث الصوفي للأمغاريين في دائرة الإشعاع الصوفي العام الذي أضحت تحتضنه مراكش من خلال تقريب أحد أبنائها منه. بل وجعله يرقى - ضمن مجمع كبار المشايخ - إلى مرتبة لم يصلها أقرانه من المريدين الحديثي العهد بالتربية الصوفية.

3. ملابسات تأسيس الزاوية

اتضح مما سبق أن اختيار تامصلوحت كموقع للزاوية لم يكن أمرا عشوائيا، بل جاء منسجما مع نهج الغزواني في إلزام مريديه بتأسيس زواياهم في مواقع محددة بعناية خاصة وباختيار شخصي منه، يأخذ في الاعتبار ظروف الموقع وأهميته الاقتصادية وأحيانا رمزيته الروحية. وهو الاختيار الذي لم ينفصل عن توجيه المريدين إلى إعمال مواهبهم الذاتية لإنعاش محيط زواياهم وخلق امتدادات بين القبائل. وهكذا جاء اختيار موقع تامصلوحت جامعا لهذه الشروط: قدم التعمير والاستغلال ومقام ولي مهجور، وهي الشروط التي حددت الوظائف المرجوة من صاحب المقام الجديد:

- إحياء أرض الموضع وعمارتها.
- إعادة الحياة لمقام الولي المهجور.

ولتحقيق هذه الشروط كان لابد من تمكين المؤسس من سلطة روحية يستعين بها لتثبيت نفسه كصاحب المقام الجديد، وتمثلت هذه السلطة في"الحكم على كل طير يؤذي (...) والحكم في المرأة العاقر".

في واقع الأمر، لم تكن هذه السلطة المزدوجة إلا تعبيرا واقعيا عن مخلفات الأزمات التي تعاقبت على الجنوب منذ بداية القرن العاشر الهجري، حيث توالت سنوات الجفاف والقحط والأوبئة[77]، والتعبئة التي قام بها شيوخ الزوايا لتجاوز آثارها المختلفة في إطار تلك الحملة الشعبية التي صاحبت دخول السعديين إلى مراكش، والتي كان من نتائجها انتعاش بادية الجنوب وتراجع آثار الأزمة. لذلك جاءت كرامات المؤسس استجابة طبيعية لضرورات اقتصادية واجتماعية وهي من هذا الجانب منسجمة مع سياقها الواقعي والمحدد، ولا يمكن اعتبارها خروجا عن المألوف وإن كان ظهورها في صور غرائبية، يجعلها محتملة الحدوث.

77- Resenberger (B), Triki (H), Famines et épidemies au Maroc au 16éme S, Hespéris – Tamuda, Vol 14, Fas Unique, 1973, p 145 – 146.

شكلت كرامة طرد الطير المؤذي ومفسدات الزرع وإعانة المرأة العاقرعلى الإنجاب، ركائز شهرة عبد الله بن حسين الصوفية، سواء في حوز مراكش أو في سائر المناطق الأخرى. فقد تفردت زاويته دون غيرها من زوايا الجنوب بهذا الصنف من الكرامات، بل إنها أضحت ملازمة لسلوك نسله من بعده وبركة يتوارثها الخلف عن السلف[78].

متى تأسست الزاوية ؟

لم تمكنا مصادرنا (المكتوبة والشفاهية) من تبيان تاريخ مضبوط لتأسيس الزاوية المصلوحية، فجل المعلومات المتوفرة اكتفت بالحديث عن الزاوية في طور ازدهارها وشهرة مؤسسها، ولم تقدم لنا أية قرينة تفيد في معرفة زمن التأسيس، مما فرض علينا من جديد الخوض في بحر الافتراضات ومقارنة القرائن الجزئية لعلنا نجد فيها ما ييسر مقصدنا.

من هذه القرائن تلك المتعلقة بتاريخ ورود الغزواني على مراكش وتاريخ وفاته، فبالنسبة للتاريخ الأول فالمحقق هو أن شيخ الطائفة الجزولية دخل مراكش في سنة 932 هـ وأن وفاته كانت - وبإجماع من ترجم له من المؤرخين - في سنة 935 هـ وبالتالي يكون تأسيس الزاوية المصلوحية محصورا بين هاتين السنتين.

غير أن تأسيس الزاوية بهذه السرعة يجعلنا نفتح باب التأويل من جديد، فلم نجد كمبرر لذلك غير الرجوع إلى ما اعتبرناه الحيثيات الخاصة التي تحكمت في اختيار الغزواني لمريد حديث العهد بالطريقة ومقاماتها الواصلة، وهي في تقديرنا مكانة أسرته الصوفية والعلمية وسمعتها بين الجزوليين. فجد عبد الله بن حسين لم يكن سوى شيخ إمامهم وقدوته في طريق القوم، لذلك جاء تكريم حفيده من طرف شيخ الطريقة كنوع من الاعتراف المبرر لمن كان مجدد الطريقة الشاذلية في زمانه (عبد الله أمغار الصغير).

بعد تزكية عبد الله بن حسين كشيخ لزاوية مستقلة، استمر عطاؤه لأزيد من أربعين سنة، عايش خلالها كل مراحل تثبيت الحكم السعدي، بدءا بتوحيد مملكتي الشمال والجنوب سنة 1549م، مرورا بتصاعد وتيرة التهديد العثماني على المغرب وأخيرا باستتباب الأمن الداخلي وانتعاش الاقتصاد المحلي وانفتاح الدولة السعدية على أوربا. وهي المراحل الكبرى التي انعكست آثارها على أوضاع الزاوية المصلوحية مدا وجزرا.

78- ما زال أبناء الزاوية إلى يومنا هذا يدعون قدرتهم على شفاء العقم وطرد المؤذي من الطيور، ولازالوا يحتفظون بنفس الطقوس لتحقيق هذه»الكرامات«.

رغم شهرة عبد الله بن حسين كأحد أبرز متصوفة العهد السعدي الأول، فإن المصادر التاريخية لم تقدم تاريخا مضبوطا لوفاته، فمنها من جعله في «سنة ست وسبعين»[79] ومنها من آثر تغليب الظن "وتوفي في غالب ظني سنة 977 هـ وقيدها بعضهم عند الزوال يوم الاثنين 21 ربيع الأول سنة 979 هـ"[80]. وسيأخذ صاحب الممتع (محمد المهدي الفاسي) نفس الملاحظة، مع تأكيد ما غلب على ظن مؤلف المرآة مستبعدا التاريخ الوارد في دوحة الناشر لأنه «بعيد لكونه (عبد الله بن حسين) تأخر بعد سيدي عبد الرحمان المجذوب وورثه وأرسل إلى سيدي يوسف الفاسي أن يأتيه وقد مات سيدي عبد الرحمان المجذوب ليلة عيد الأضحى من سنة ست وسبعين»[81].

وهذا الأمر ثابت في"ابتهاج القلوب"[82] وفي"البدور الضاوية"[83]، ولا يخالف هذه الإثباتات إلا نص عقد قسمة أملاك الزاوية بين أبناء عبد الله بن حسين، وتاريخه سنة 973 هـ[84]. ما دامت مثل هذه الإجراءات (القسمة) تتم بعد وفاة الهالك فإن تاريخ العقد المشار إليه يطابق ظاهريا وفاة عبد الله بن حسين، وهو ما سيجعلنا أمام وضع غامض: كيف يمكن التوفيق بين إثباتات المصادر المحققة وتاريخ العقد، الذي يحتمل أن يشوبه تشـويه؟ لذلك نقر بأن ما أورده صاحب المرآة ومن أخذ عنه هو التاريخ الأدق لتوافقه مع جملة من المعطيات المحققة تاريخيا، أما ما ورد في نص العقد فغير محقق رغم وجاهته الظاهرة.

4. وسائل تثبيت نفوذ الزاوية بالمحيط المحلي

اعتمد عبد الله بن حسين لإثبات نفوذ زاويته على مجهوده الخاص في المقام الأول، ثم على مواهبه الذاتية في استغلال الأرض ومد قنوات السقي وإحياء العيون المندرسة. وقد سلك منذ البداية أسلوبا تعاقديا مع القبائل المجاورة لتشجيعها على الاشتغال بالزراعة واجتثاث الغابة، حيث أقر بالتنازل لها عن ثلث من مداخيل الزاوية.

79- ابن عسكر، ن.م، ص 107.

80- الفاسي، ن.م، ص 206.

81- الفاسي، ن.م، ص 58.

82- الفاسي، ن.م، ص 89.

83- الحوات (سليمان)، **البدور الضاوية في التعريف بسادات أهل الزاوية الدلائية**، م.خ.ع د 261، ص 75.

84- نص عقد قسمة تراضي بين أحمد ومحمد، أبناء الشيخ الهالك. وثيقة خاصة.

ومن القبائل الأولى التي خدمت الزاوية وفق هذا العرف وجدنا قبيلتي لعكارة وبني مداس[85]، وهما القبيلتان اللتان شكلتا القاعدة البشرية الأولى للزاوية وظلت صلاتهما بها قائمة على أساس خدمتها[86].

لم ينحصر أسلوب الشيخ المؤسس في استقطاب المستغلين لحساب الزاوية، بل توسع لحث القبائل الأخرى على الاهتمام بالأرض، موظفا مواهبه الصوفية وكراماته، من ذلك أنه كان "يكتب دعوته في رقعة وتجعل في قصبة وترفع في الفدان، فإن الطير يرحل من حينه"[87]. انتشرت هذه العادة بين الناس حتى تحولت إلى خدمة أوظيفة (بالتعبير المحلي) يتسابق الجميع على التبرك بها، مما حدا بالشيخ إلى تحويلها إلى فعل رمزي يعود على الزاوية بالفائدة المادية، إذ أصبح المستفيدون منها يتنازلون لزاوية الشيخ عن جزء من محصول إنتاجهم الزراعي، "وقد رأيت أهل الثيران يجعلون وظيفا على أزواجهم في الحراثة أخماسا وأعشارا"[88]. وسوف تظل هذه العادة قائمة إلى يومنا هذا، بل شكلت على مدة تاريخ الزاوية مصدرا أساسيا من مداخيلها الثابتة.

لم ينحصر دور عبد الله بن حسين في عقد التعاقدات مع القبائل واستقطابها، بل شمل هذا الدور كذلك إدماج بعض القبائل في التركيبة البشرية للزاوية بجعلها سندا قبليا لها. من أول القبائل المحلية التي لعبت دورا أساسيا في تثبيت قوة الزاوية، نذكر قبيلة أولاد مطاع العربية التي ارتبطت صلاتها بالزاوية كقبيلة حامية[89] منذ استقرار عبد الله بن حسين بتامصلوحت.

استطاع عبد الله بن حسين، وفي أقل من عقدين من الزمان، أن يوفر لزاويته كل الشروط المادية والبشرية والروحية بالاعتماد في المقام الأول على دوره كمزارع موهوب وكصوفي له بركات ظاهرة على الزرع. ورغم نجاحه في استقطاب الجموع وتشكيل

85- قبيلة بني مداس من القبائل التي استقرت بمحيط تامصلوحت منذ القديم، ويذكر الإفراني أن بني مداس شعب من شعوب المصامدة. الإفراني، ن.م، ص 223/224.

86- لازال بعض المنتسبين إلى هاتين القبيلتين يقر بأنهم مجرد خدام للزاوية.

87- ابن عسكر، ن.م، ص 106.

88- نفسه.

89- سنعالج هذه العلاقة في نقطة لاحقة.

قاعدة واسعة من الأتباع، فإننا لم نتبين ما إذا كان للمخزن السعدي الحديث العهد بالسلطة دور في هذا النجاح، على الأقل في عهد محمد الشيخ[90].

في مقابل ذلك كان دور الزاوية وغيرها من الزوايا فعالا في تعزيز سلطة السعديين من خلال مساهمتها في النمو الاقتصادي وإعادة الحياة للبادية الحوزية وخلق دينامية إنتاجية في الوسط القبلي بتشكيل تجمعات منتجة، أعادت من خلالها الحيوية لمنطقة شهدت ركودا طويلا منذ العهد الموحدي بتأطيرها ليد عاملة مرتبطة بالأرض، إما بالخدمة المباشرة بها أو عن طريق المشاركة بالخمس أو الربع.

وإجمالا كان لدور الزاوية المصلوحية ولزوايا الحوز في العهد السعدي الأول أثر واضح في إخراج البادية من مضاعفات الأزمات المتعاقبة منذ بدية القرن العاشر الهجري والحد من مخلفات الجفاف والقحط والأوبئة، وهي على كل حال، أعمال - وإن اتسمت بالطابع الصوفي - كان لها أثر سياسي بالغ الأهمية. بل نستطيع أن نقرأ من خلاله نوعا من التعاقد الضمني بين الدولة الناشئة ومؤسسة الزاوية، تقاسم فيه الطرفان الأدوار والمصالح على السواء، وحتما استطاع كل طرف أن يجني من ذلك نصيبه المعلوم فالدولة الناشئة تقوت بدعم رجال التصوف لها، وهؤلاء كسبوا النفوذ والتقدير والامتيازات[91].

5. المكانة الصوفية والعلمية للشيخ المؤسس

اشتهرت الزاوية المصلوحية في العهد السعدي بشخصية مؤسسها (عبد الله بن حسين) ولم يكن بالإمكان فصل هذه الشخصية - حتى في روايات المؤرخين - عن مآل الزاوية ونجاحها الاقتصادي. فقد أورد ابن عسكر أنه حضر بعض مواسم الزاوية ورأى العجب من ازدحام الخلق وكثرة الواردين[92]، وهو دليل على شيوع أمرها واتساع نفوذها، الذي لم يعد محصورا في نطاق الحوز فقط بل ضم قبائل من جهات متباعدة من المغرب، كآيت عطا من الجنوب الشرقي.

90- للأسف الشديد لم تسعفنا وثائقنا الخاصة في معرفة الكثير من الجوانب الغامضة من المراحل الأولى من تاريخ الزاوية، من ذلك هل تحصلت الزاوية على امتيازات من السعديين الأوائل، كما حصل بالنسبة لبعض زوايا الجنوب

91- من الزوايا التي تمكنت من تكوين ثروات كبيرة في العهد السعدي نذكر زاوية أبي عمر القسطلي الموجودة في أحواز مراكش.

92- إحالة سابقة الذكر.

تمكن عبد الله بن حسين في ظرف وجيز من استعادة نفوذ الأمغاريين في الكثير من الجهات، فتحولت زاويته من مجرد فرع مهمش بحوز مراكش إلى مؤسسة صوفية جمعت شتات بني أمغار. فلم نعد نسمع عن تلك الزوايا الأمغارية الموزعة بين الأطلس الكبير أو الأطلس المتوسط، إذ احتكرت الزاوية المصلوحية كل المجد والشهرة التي كانت لبني أمغار وأعادت تجديد أداء هذه الأسرة الصوفية، وتحولت معها كل زواياها إلى مجرد فروع لها.

كما أنه لم يعد ينظر إلى عبد الله بن حسين كمجرد حفيد لأبي عبد الله أمغار فحسب، بل أصبح صاحب طريقة صوفية مجددة، تجاوزت في الكثير من الأحيان آثار الأسلاف بل أعادت الاعتبار للأسرة الأمغارية كأسرة «توارثت الصلاح والولاية والعلم كما يتوارث الناس المال»[93].

من أبرز المؤشرات على مكانة الشيخ المؤسس ما أشيع عنه زمن الغالب بالله السعدي[94] من أنه كان من بين ثلاثة"هم عيون الزمان: مولاي عبد الله (الغالب بالله) وسيدي عبد الله بن حسين وسيدي عياد السوسي"[95].

وتكمن مكانة المؤسس الصوفية في كونه مارس تصوفا تلقائيا بعيدا عن التعقيدات السلوكية التي طبعت طريقة بعض مشاييخ التصوف في العهد السعدي. فقد كان يردد على الدوام أن «دارنا دار سر وليست دار علم» وأن سر طريقته أتى به من شيخه الغزواني الذي كان «يجيب بالحال أكثر مما يجيب بالمقال»[96]. كما مزج بين السلوك الصوفي البسيط والعطاء الفعلي مع الابتعاد عن التكليف، وكثيرا ما كان يذكر أتباعه أن مسلكه النجاة الكامنة في الزهد والتقشف حتى أنه اشتهر بصاحب "الدشيشة والخرشيشة".

بالرغم من البساطة الظاهرة على سلوك "مولاي عبد الله بن حساين" إلا إنه كان عالما متمكنا من أمور الشريعة، وثمة الكثير من الشهادات التي تقر له بذلك، فالتمنارتي

93 -ابن قنفد، ن.م، ص 22.

94 - 1557 – 1574 م.

95 - الإفراني ن.م، ص 46.

96 - ابن عسكر، ن.م، ص 98.

في "الفوائد الجمة"يعتبره من"علماء الشريعة والحقيقة"[97] وسيدي قدار وسمه بالشيخ الجليل كبير الشأن من أهل الرسوخ في العرفان[98].

ولم تنحصر اهتمامات عبد الله بن حسين في أمور التصوف والشريعة، بل اشتهر كذلك بنظمه للمولديات التي جعلها من أذكار زاويته[99]. وبسبب شهرته أخذ عنه الكثير من الشيوخ والعلماء، نذكر من بينهم محمد بن علي ابن ريسون صاحب زاوية تاصورت في الشمال، فكان شيخه في التصوف «وعمدته وبه تخرج»[100]، ومحمد بن أبي زكرياء الملقب بالقدار الذي قصد زاويته واختلى بشيخها «مدة أربعين سنة»، فلما خرج منها «كوشف بكل شيء في المشرق والمغرب»[101]. وعبد الرحمان الفحلي الذي قضى بزاوية عبد الله بن حسين قرابة العشرين سنة[102]، وأبو سعيد بن علي السوسي الهشتوكي مؤسس زاوية واوزعت بالأطلس الكبير[103]، وموسى بن يعقوب البوكمازي صاحب زاوية تناغملت (الأطلس الكبير)[104].

من العلماء الذين أخذوا عن عبد الله بن حسين نذكر سيدي شقرون الفخار الفاسي[105] وعيسى بن مصباح[106]، كما كانت له صلات صوفية مع الكثير من أقرانه شيوخ التصوف، كتلك التي جمعته بالشيخ أحمد بن موسى السملالي، أشهر متصوفة العهد

97- التمنارتي (عبد الرحمان الجزولي)، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، م.خ.ع - د 1103، ورقة 23.

98- ابن إبراهيم، ن.م، ج 8، ص 246.

99- لم يعد يحفظ من هذا النظم إلا القليل، وأكثر هذا القليل مجرد أبيات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، تنشد في عيد المولد الشريف.

100- القادري (محمد بن الطيب)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977، (تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق) ص 148.

101- الإفراني، الصفوة، سابق الذكر، ص 52.

102- ينتمي الفحلي هذا إلى عرب زرارة، خدم شيخ الزاوية المصلوحية مدة طويلة تعرض خلالها هذا الأخير لاذاية من قومه فدعا عليهم الشيخ بالفناء، فاستغرب الفحلي من ذلك:»أني خدمت بابك عشرين سنة تستأصل قبيلتي، والله لا يكون ذلك». الإفراني، الصفوة، ص 151.

103- الفاسي، **الممتع**، ص 122. الحضيكي (محمد السوسي)، **طبقات الحضيكي**، م.خ. ع - د 1123، ص 130. الإفراني، **الصفوة**، ص 202-201.

104- انتقل موسى بعد وفاة شيخه إلى عبد الله بن حسين حيث أخذ عنه أصول الطريقة. عمالك (أحمد)، **الدرة الجليلة في مناقب الخليفة**، {تحقيق ودراسة، أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ} كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986، مرقونة، هامش الصفحة 258.

105- الإفراني، الصفوة، ص 57. القادري، النشر، ج 1، ص 228.

106- التادلي، التشوف الصغير، ورقة 83 و.

السعدي الأول وأكثرهم تأثيرا ونفوذا وسيدي عبد الرحمان المجذوب، الذي كانت له حظوة خاصة في البيت الأمغاري[107].

6. ثروة الزاوية في مرحلة التأسيس

غالبا ما تقاس ثروات الزوايا بحجم نفوذها وشهرتها وبما راكمته من امتيازات وحقوق وزيارات، وظلت مصادر هذه الثروة إما مخزنية أو مستخلصة من أدوار الزاوية في وسطها القبلي، وفي الغالب الأعم كان تناسب هذه الثروة مع أدوار الزاوية هو ما يفرز زوايا غنية وأخرى هامشية.

بيد أن حالة الزاوية المصلوحية في المرحلة الأولى من تاريخها، لا تعكس هذه القاعدة، رغم أهمية أدوارها في المحيط الحوزي. وتبقى الظروف الخاصة التي نشأت فيها هي الاحتمال الممكن لتفسير وضعيتها هذه: فالمخزن السعدي، خلال هذه المرحلة، كان بصدد تثبيت أركانه واستكمال مقومات دولته ولم يملك بعد كل الآليات المطلوبة لضبط الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، فكانت الزوايا تتحرك بمحض إرادتها وحسب إمكانياتها المادية والروحية، معتمدة في الكثير من الأحيان على ما توفر لها من شروط في مجالاتها القبلية ومناطق نفوذها الروحي.

وبحكم الطابع التعبوي الذي ميز نشاط الكثير من الزوايا، فإن فرص امتلاكها لثروات مادية كبرى كانت محدودة ومقيدة من جهة بظرفية الأزمة، ومن جهة ثانية بالانتقال إلى مرحلة التوطين التي ألزمت الشيوخ المؤسسين بذل ما في وسعهم من مجهودات ذاتية من خلال آليات التأثير المعنوي (كرامات / خوارق / تربية صوفية ...) لاستقطاب الأتباع والمريدين. لذلك لن نفاجأ خلال هذه المرحلة، إن لم نصادف زوايا ذات ثروات كبرى، على غرار ما حصل في العهد السعدي الثاني[108]. والدليل الواضح هو الزاوية المصلوحية التي لم تتعد ثروتها المكتسبة خلال أربعين سنة من مشيخة عبد الله بن حسين المائة هكتار، أغلبها أراضي بورية[109].

107- الفاسي، ابتهاج القلوب، سابق الذكر، ص 89.

108- نقصد بالخصوص ما بعد معركة وادي المخازن (1578)، حيث بدأت تظهر بوضوح إقطاعات وإنعامات مخصصة للزوايا من طرف المخزن السعدي، بعضها تحصلت عليها من جراء دورها في هذه المعركة والبعض الأخر جاء نتيجة طبيعية لسياسة الدولة السعدية في عهد أحمد المنصور الذهبي، الذي اعتمد سياسة دينية ترمي إلى إدماج الجهاز الصوفي في دواليب الدولة حتى يكون سبيلا لتطويق آثار التمردات الداخلية والتهديدات الأجنبية.

109- Pascon, op.cit. , T 1, p 275.

بتفحص عقد قسمة أملاك الزاوية بعد وفاة شيخها المؤسس، نلاحظ أنه شمل صنفين من الممتلكات توزعت بين وريثيه الشرعيين (أحمد ومحمد). فقد «خرج الأول بزاوية تامصلحت وأملاكها بياضا وسوادا، بوارا وسقيا (...) وكافة أشجاره مثمورا وغير مثمور (...) وخرج سيدي أحمد بتولي والسهيب»[110].

تدل هذه القسمة على تباين مصادر ثروة الزاوية، فالصنف الأول يمثل الزاوية نفسها من مقر ومرافق مرتبطة به وكل ما يدخل في نطاق نشاطها الاجتماعي والديني. ويحتمل أن يكون هذا الصنف من عائدات الزاوية المحصلة كمداخيل وزيارات وهبات، وربما أحباس محدودة. بينما ضم الصنف الثاني ما يمكن أن نعتبره الممتلكات الخاصة التي تحصل عليها شيخ الزاوية من مجهوده الذاتي كمزارع، ولم تكن لها صلة بأداء الزاوية الديني[111].

ما يزكي هذا التمييز في ثروة الزاوية هي رسوم الملكية المحفوظة لدى نقيب الزاوية، والتي أقنعتنا بتباين أصول الأراضي منذ تأسيس الزاوية: فأملاك الزاوية – التي لازالت تحت تصرفها إلى اليوم – لم تخضع لعمليات البيع أو الشراء، بعكس الصنف الثاني الذي ظل أبناء الزاوية أحرارا في إخضاعه لمثل هذه العمليات[112]. كما أن عدم تحديد أملاك الزاوية في عقد القسمة المشار إليه أعلاه، يعني أن كيانها العقاري لم يكن منفصلا منذ التأسيس عن أدوارها الأولى المحددة من طرف الشيخ الغزواني والمتمثلة في إحياء موات الأرض وإنعاش الآبار المغمورة والعيون الغابرة. وهي أعمال كانت ملزمة للشيخ ولزاويته مقابل عدم تفويتها أو مبادلتها أو معاوضتها بحكم الأصل الشرعي المقيد لاستغلالها والضابط لطرق الاستفادة منها، بالرغم من أن حق التصرف مكفول لمن كان المبادر في العمل والإصلاح. وصاحب الحق هنا هي الزاوية وليس الأفراد، لذلك كان من الصعب تبيان معالم ثروة الزاوية في هذه المرحلة.

لم تكن ثروة الزاوية المصلوحية زمن مشيخة عبد الله بن حسين محصورة في هذا الصنف من الأملاك، فقد استطاع أن يضم لحسابه الشخصي ممتلكات إضافية لعبت دور الموازن المكمل لمداخيل الزاوية الأخرى. فقد أثبتت التجربة أن هذا الصنف استعمل

110 - عقد قسمة وتراضي مؤرخ في 973 هـ وثيقة خاصة.

111 - من ذلك عقد تمليك أرض تولي الذي اطلعنا على نسخته الأصلية، فتبين لنا أنه في ملكية شيخ الزاوية.

112 - كما حصل بالنسبة لأراضي السهيب وتولي، المشار إليهما في عقد القسمة أعلاه.

في حالات عرفت فيها الزاوية بعض المصاعب المادية[113]. وحتى تبقى لشيخ الزاوية حرية التصرف في هذا الصنف، فقد بينت رسوم التمليك الخاصة حدود هذا الصنف ومكوناته لتمييزه عن الصنف الخاص بالزاوية كمؤسسة دينية لها وظائفها المحددة شرعا. لذلك كثيرا ما أدرج هذا الصنف في معاملات الزاوية باعتباره أصلا منقولا يتقاسم سائر الورثة فوائده وعائداته. والملاحظ أن هذا الصنف لم يعرف أي تطور من حيث حجمه، بعكس الصنف الأول الذي نما وزاد كلما زاد نفوذ الزاوية اتساعا، وهذا أمر طبيعي باعتبار أن الأصل في الصنف الأول ظل مقيدا بقاعدة الامتياز الممنوح للزاوية، فلا تفويت فيه ولا بيع ولا شراء.

بناء على ما جاء في مستخرج قديم خاص بأملاك الزاوية[114] أمكننا استخلاص صورة تقريبية لحجم ثروة الزاوية في عهد عبد الله بن حسين، وإن كانت المعطيات الواردة فيه غير دقيقة بما يكفي. ويتبين من خلال هذا المستخرج أن إجمال هذه الثروة لم يكن ليتعدى المائة هكتار أغلبها عبارة عن أراضي بورية، ضمت نطاقين اثنين هما:

- **النطاق الأول**، وضم القطاعات التالية:

- القطاع الرئيسي، ويمكن اعتباره منطلق عبد الله بن حسين في أعماله الزراعية وباكورة مجهوده في إحياء موات الأرض، وتمثل أشجار الزيتون أهم مغروساته. ومنذ ذلك الحين أضحت هذه الشجرة رمزا لثروة الزاوية وعنوانا لبركة مؤسسها[115].

- القطاع المكمل، وهو عبارة عن جنان محدود المساحة، مخصص بدوره لمغروسات الزيتون.

- عرصتان صغيرتان، تحيطان بمقر الزاوية الأصلي، ويحتمل أن تكونا المصدر الأول لتزويد الزاوية بحاجياتها الضرورية من خضر وكروم ...

113 - تعرضت الزاوية خلال تاريخها الطويل إلى العديد من الأزمات الاقتصادية، عجزت خلالها عن تأمين وظائفها المختلفة، وظلت أبلغها أثرا تلك التي عصفت بها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين اضطر شيخها آنذاك، سعيد بن محمد، إلى الاستعانة بالمخزن لفك الرهون عن أملاك الزاوية لأداء ما راكمه من ديون. توجد تفاصيل ذلك في مراسلة للسلطان محمد بن عبد الرحمان (1290/1276 هـ - 1859/1873 م) إلى القاضيين محمد بن المدني السرغيني ومحمد بن عبد الواحد الدويري، مؤرخة في فاتح محرم من عام 1285 هـ مراسلة خاصة.

114 - يمثل هذا المستخرج بيان كل أملاك الزاوية منذ نشأتها وكل الإضافات التي ألحقت بها فيما بعد، وهو بهذه الصفة الوثيقة الأكثر تعبيرا عن تطور عقارات الزاوية. ولا زال يعتمد في التصفية وتحرير عقود القسمة وإخراج عقود الإراثة، بل شكل على الدوام الحجة التي استندت عليها الزاوية لإثبات حقوقها سواء في معارضة القبائل أو في مواجهة أعوان المخزن.

115 - أمكننا معاينة بعض مغروسات الزيتون التي يدعي أبناء الزاوية أنها من الأغراس التي وضعها عبد الله بن حسين بنفسه، وحجتهم في ذلك قدمها وتميزها عن باقي المغروسات الأخرى. ولهذه الغاية أطلقوا عليها اسم «صفوف مولاي عبد الله بن حسين» ويعترفون بأنها أثمر وأزكى ما يملكون.

- **النطاق الثاني**

اشتمل على أملاك خارجة عن نطاق الزاوية وأغلبها وجد بالقرب من المجاري المائية الموسمية، وهي التي ورد ذكرها في عقد القسمة الأول (السهيب وتولي). شكل هذا النطاق المزود الرئيسي للزاوية من الحبوب وبعض الغلات الموسمية.

الملاحظ على ثروة الزاوية أنها لم تشمل أي صنف من حقوق الاستغلال سواء تعلق الأمر بالموارد المائية أو غيرها من الأصناف المعهودة لدى زوايا مماثلة، مما يسمح لنا بالاعتقاد بأن الزاوية في هذه المرحلة لم تعتمد إلا على ما تحصلت عليه بمجهودها الخاص، وهو ما أثبتته الرواية المحلية. فقد أعاد عبد الله بن حسين حفر خطارة قديمة بقطاع السهيب بمجهوده الشخصي وتنازل لبعض الأهالي عن قسم من المحصول لقاء خدمة الأرض ومشاركته في إحياء مواتها، وتراوحت حصص مقابل الخدمة بين الخمس والربع، مما شكل نوعا من المشاركة المبكرة بين الزاوية والسكان. وسيعرف هذا الأسلوب لاحقا تطورا ملحوظا، شمل كل أملاك الزاوية المحبسة وغير المحبسة، بل أصبح هذا النوع من التعاقد الأكثر شيوعا بين أبناء الزاوية إلى وقت قريب[116].

7.الامتداد البشري للزاوية

بينا فيما سبق، كيف أن علاقة الزاوية المصلوحية بمحيطها البشري تحددت في ضوء الدوافع الصوفية والاقتصادية التي انبنت عليها خطوة مؤسسها الرامية إلى محاربة آثار الجفاف والقحط والمساهمة في تعمير المناطق المتضررة، وهي الخطوات التي كان لها دور في خلق روابط مبكرة بين زاوية حديثة العهد والقبائل المحلية، أو تلك التي وفدت لخدمة الأرض لحساب شيخ الزاوية، مما خلق دينامية بشرية في منطقة كانت غير مأهولة.

بيد أن تأسيس الزاوية في نطاق غريب عن مؤسسها ونجاحه في استقطاب عناصر وافدة، أعقبه حدوث سلسلة من النزاعات بين الزاوية والقبائل المحلية، وهي تحديدا القبائل السجتانية المجاورة التي وجدت نفسها محاطة بزاوية أضحى نفوذها القبلي

116 - يمثل هذا النوع الأسلوب الوحيد في استغلال أراضي الزاوية إلى بداية الستينيات، بيد أن المشاكل المترتبة على هذا النوع من الاستغلال دفع بورثة الزاوية إلى كراء هذه الأراضي لبعض منتجي الزيتون مقابل مبالغ مالية زهيدة، غير أن بعض الغيورين من أبناء الزاوية نجح في تجميع القسم الأعظم من الورثة في إطار تعاونية فلاحية لاستغلال سائر الأراضي في صورة جماعية، بقصد الحيلولة دون تفكيك ما يسمونه ب»حبس الأشراف«.

مؤثرا، خصوصا أن تلك القبائل ظلت تعتبر نفسها صاحبة النفوذ والقرار في مجالات أفلحت الزاوية في إنعاشها.

من الناحية الجغرافية، توافق موضع تامصلوحت ومجال قبيلة سجتانة المصمودية المشهورة منذ العهد الموحدي، وبحكم توسعها في الهوامش الشمالية الغربية للأطلس الكبير وانفتاحها على حوز مراكش، فقد جاء تأسيس زاوية تامصلوحت بمثابة حاجز لهذا التوسع وتضييقا من جهة الأطراف الشمالية لنفوذ هذه القبيلة. وقد ظهرت أولى علامات هذا التضييق منذ شروع عبد الله بن حسين في إنعاش منطقة إحجارن وتحديدا قطاع تولي الغني بموارده المائية، وهو قطاع تكميلي لمجال سكتانة الجبلي[117].

بصرف النظر عن الأهداف الاقتصادية الواضحة لهذا التوسع والمبررة من الوجهة الشرعية[118]، فإن الأثر البشري على القبيلة الأصلية كان سلبيا. فالسكتانيون سيعارضون هذا التوسع بحكم ما انطوت عليه خطوة عبد الله بن حسين من توطين لعناصر بشرية غريبة عن الوسط، والقبيلة المقصودة هي قبيلة أولاد مطاع العربية الانتماء واللسان والحديثة العهد بنطاق الحوز، مقارنة بالقبيلة السكتانية المستقرة به منذ غابر الأزمان.

لم تكن قبيلة أولاد مطاع غريبة عن الحوز فهي من القبائل العربية الأولى التي استوطنته منذ القرن الثامن الهجري، واستطاعت أن تلعب أدوارا بارزة في الكثير من أحداثه السياسية والعسكرية، وإن لم تظهر بوضوح إلا في العهد السعدي الثاني (ولاية أحمد المنصور الذهبي). في أعقاب نجاح الدولة السعدية في ضم مراكش، أصبحت هذه القبيلة عنصرا أساسيا في دعامتها العسكرية والبشرية إلى جانب قبائل عربية أخرى، كزرارة والشبانات. وتمكنت هذه القبائل من الزحف نحو محيط الحوز لتشغل الفراغات الناشئة عن تراجع القبائل المحلية المساندة للهنتاتيين.

في خضم هذا التحول السياسي والبشري، نشأت صلات مبكرة بين الزاوية المصلوحية وقبيلة أولاد مطاع، وهي الصلات التي وثقتها الرواية المحلية بإحكام حتى

117- جاءت هذه الواقعة متضمنة في الرواية المحلية في شكل تلاسن بين عبد الله بن حسين وولي إحجارن السكتاني وقد سبق لنا أن بينا ذلك، وإن في صورة منقبية تكسوها رموز دالة على صراع بين مكونات الجسم الصوفي.

118 - بحسب حديث نبوي شريف:»من أحيا أرضا فهي له«.

أضحت نموذجا مثاليا للروابط الصوفية - القبلية[119]. ومن المؤكد أن تمكن زاوية ناشئة من عقد تحالف مبكر مع قبيلة قديمة الاستقرار لا تربطها أية صلة سابقة بالأمغاريين يدعو إلى البحث عن الدوافع الحقيقية لهذا التحالف. فرغم ثراء الرواية المحلية في هذا الجانب وحججها الكثيرة لتبرير دواعي هذا التحالف، فإنها لا تقدم أسبابا مقنعة لفهم ذلك أو على الأقل لتكون متطابقة مع مسار تأسيس الزاوية.

أشرنا في نقطة سابقة إلى معارضة السكتانيين لبسط الزاوية المصلوحية لنفوذها في مجالاتهم التكميلية، وباعتبار محاذاة مجال أولاد مطاع من جهة الشرق لمجال تلك القبيلة، فإننا ندرك بسهولة دواعي التجاء عبد الله بن حسين إلى القبيلة العربية لطلب حمايتها بما تمثله من منافسة طبيعية لمصالح القبيلة السكتانية. ما يزكي هذا الاحتمال كون أولاد مطاع سينازعون السكتانيين في ملكية قطاع فلاحي بناحية أمزميز، وهي منطقة تماس جغرافي بين القبيلتين. ويبدو – حسب ما توفر لنا من معلومات – أن عبد الله بن حسين - وفي مقابل دعم وحماية المطاعيين لزاويته - قام بإنجاز بعض المشاريع السقوية بالقطاع المتنازع عليه لحساب العطاويين، وهي المشاريع التي أثمرت وعادت على القبيلة العربية بالنفع العميم.

بفضل سمعة شيخ الزاوية المصلوحية كولي صاحب بركة وكرامات، تمكنت قبيلة أولاد مطاع من تثبيت نفوذها واكتساب حماية معنوية لها ولمكوناتها البشرية، خصوصا بعد أن أضحت الزاوية تستأثر بالجموع وتظهر على الخلق "بركاته في الزرع والنسل". غير أن أهم ما قدمته الزاوية لأولاد مطاع كان تسهيل مرورها نحو الأراضي الشمالية المحيطة بوادي نفيس، الغنية بمواردها المائية. وسوف يصبح هذا القطاع لاحقا من المجالات الزراعية التي تقاسمت فيها الزاوية النفوذ والاستغلال مع العطاويين.

كما عكس هذا التحالف الحيوي بين الطرفين مدى حاجة الشيخ المؤسس لقاعدة بشرية محلية قادرة على منحه الدعم وسبل الحماية، سواء لدرء مضايقات القبائل المحلية التي تضايقت من بسط نفوذه، أو من تطلع بعض القبائل الوافدة على الحوز(زرارة) التي استوطنت الأطراف الشمالية لمجال الزاوية[120]. كما أفلح شيخ الزاوية،

119- تحتفظ هذه القبيلة إلى اليوم بالعديد من المزارات المخصصة لسادات تامصلوحت، بعضها ينسب للمؤسس والبعض الآخر لحفدته. كما أنها لازالت تحرص على تقديم»وعدتها«المعهودة للشرفاء في مناسبات المواسم السنوية

120- عانت الزاوية المصلوحية من تحرشات زرارة منذ أن أصبحت من ضمن الكيش السعدي، وهناك الكثير من الوقائع التي تثبت ذلك. ولن تتحسن صلاتها بالزاوية إلا حين انخرطت زاوية كيك (فرع للزاوية المصلوحية) في دعم حكم الشبانات إبان تراجع الحكم السعدي في بداية القرن 11هـ / 17م.

ومنذ البداية في منح زاويته قاعدة بشرية كان في حاجة إليها، مكنته من مد إشعاعه الروحي في الوسط الحوزي الغريب عنه، والتي لولاها لما أمكنه أن يضمن لزاويته عوامل الاستمرار والبقاء.

لم ينحصر دور عبد الله بن حسين، خلال مرحلة التأسيس، في ربط صلات مع القبائل المحلية، بل توسع نحو إعادة ربط علاقاته مع القبائل التي شكلت عصبية الأمغاريين الأصلية، وتحديدا تلك التي تواجدت بمناطق الأطلس الكبير بشقيه الغربي والشرقي. ففي بلاد هنتيفة، أعادت الزاوية المصلوحية إحكام السلطة الروحية لبني أمغار على مناطق نفوذ زاوية أغبالو وتشكيل فروع جديدة للزاوية بهذه الجهة، من بينها زاوية تناغملت، من خلال تلميذ عبد الله بن حسين، موسى بن يعقوب البوكمازي.

وقد اكتسبت زاوية تناغملت شهرة محلية بفضل أدوارها التحكيمية في النزاعات القبلية المحلية خصوصا بين قبيلتي آيت بوزيد وآيت عتاب[121]، إضافة إلى زوايا أخرى كانت في الأصل تابعة للزاوية المصلوحية كزاوية إزدن ببلاد هنتيفة[122] وزاوية ووزغت ببلاد آيت بوزيد[123] التي أنشأها على السوسي الهشتوكي في أيام عبد الله بن حسين.

مكنت هذه الفروع الزاوية المصلوحية الناشئة من استعادة نفوذ الأمغاريين بمناطق الأطلس الكبير الأوسط، وهي المناطق التي ستشكل لاحقا عمقها البشري وصلة وصل أساسية مع مناطق الجنوب الشرقي المغربي، التي ظلت تمثل عنصر القوة في العصبية القبلية للزاوية المصلوحية، من خلال زاوية آسول الأمغارية وعصبتها من قبائل الاتحادية العطاوية.

تردد كثيرا لدى بعض الباحثين الأجانب كلام من قبيل « أن الاتحادية العطاوية لم تكن تدين بالولاء لا لسلطة المخزن ولا لغيره من القوى الدينية الأخرى، بل كان ولاؤها مطلقا لشريف تامصلوحت»[124]. بل ذهب البعض الآخر إلى حد اعتبار ما كانت تقوم به هذه الاتحادية من أعمال مجرد تنفيذ للتعاليم الروحية التي كانت تتلقاها من شريف تامصلوحت الذي ظل يبارك تلك الأعمال مقابل نصيب من غنائمها[125]، وبحكم هذا

121- دافع بعض الباحثين على أن شهرة هذه القبيلة تعود لانخراطها في الطريقة الناصرية. عمالك، ن.م، ص 258.

122- تقع على بعد 13 كلم من فم الجمعة جنوبي مركز بزو بالأطلس الكبير.

123 -توجد هذه الزاوية بمركز ووزغت شمالي وادي العبيد.

124 -روج مثل هذا الكلام المراقب المدني Spillman في دراسته عن آيت عطا. Spillman (G) Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Draa ; Rabat ; Imprimerie nouvelle ; 1936.

125-دأبت القبيلة العطاوية على تقديم هدايا سنوية لشيخ الزاوية المصلوحية كعربون على ولائها الروحي للزاوية، وهو ما اعتبر تقاسما للغنائم.

الولاء ظل المخزن يعتمد وساطة الزاوية في كل صلاته بهذه الاتحادية.

من الصعب تزكية هذا الرأي بناءا على ما نملكه من وثائق عطاوية وروايات محلية، بالرغم من استمرارية ولاء الاتحادية العطاوية الروحي للزاوية.

تكمن صعوبة معرفة طبيعة العلاقة الاستثنائية بين آيت عطا والزاوية المصلوحية إلى الالتباس الذي اكتنف أصول هذه العلاقة، رغم مجهود بعض الباحثين لاستقراء ذلك من خلال بعض الوثائق المحلية المتأخرة[126].

فالرواية المحلية تقدم تفسيرا غامضا لروابط آيت عطا بالشريف الأمغاري وتغلب الجانب الأسطوري على هذه العلاقة، بل تزكي أعمالها «البطولية» والتي «لم يتحملها سوى شريف تامصلوحت»[127]. وهي الحقيقة الوحيدة التي استند إليها الأوربيون لتفسير مجمل الروابط بين الطرفين.

بالرجوع إلى بعض المعطيات التاريخية المحققة نلاحظ أن آيت عطا، كحلف قبلي، كان سابق النشأة على ظهور زاوية تامصلوحت وظل مجاله الأصلي - جبل صاغر- حيث احترف فيه حياة النجعة والترحال منذ القرن الخامس عشر. كما أن تشكيل الحلف جاء في الأصل «على حساب اتحاديات قديمة تعرضت للتفكك»[128]، وبالتالي تكون شخصية دادا عطا – المؤسس المفترض لهذه الاتحادية – متأخرة تاريخيا عن ظهور الحلف نفسه. وهو الأمر الذي دفع بصاحب كتاب "تافيلالت" إلى إرجاع دواعي تشكيل الحلف إلى عوامل حيوية مرتبطة بأزمات القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وما كان لهما من آثار سلبية على اقتصاد المغرب عامة واقتصاد الجنوب بالخصوص المعتمد على تجارة الصحراء. إضافة إلى ما واكب ذلك من زحف للقبائل المعقلية وتضييقها بمصالح قبائل الجنوب الشرقي، مما حتم على هذه القبائل -وأمام تعاقب الأزمات- بناء مخازن جماعية للحبوب، شكلت النواة الأصلية لتحالفات قبلية كبرى[129].

126 -العربي مزين في دراسته عن تافيلالت، سابقة الذكر.

127 -اعتمدنا في استخلاص هذه الحقائق على استجواب الكثير من شيوخ الاتحادية الذين قدموا إلى مقر الزاوية لتقديم الهدية السنوية، أبريل 1985.

128 -مزين،ن.م، ص 194.

129 - نفسه.

من أهم هذه التحالفات حلف آيت إسفول وحلف أيت واحليم، المشكلين للمخزن الجماعي المعروف بإغرم أمزداغ بجبل صاغرو الذي جاء استجابة لحاجة القبائل الرعوية قصد تأمين ضروراتها الحيوية (الحبوب)[130].

رغم ما تقدمه هذه المعطيات من إجابات مقبولة ومنسجمة مع الظروف التاريخية للجنوب الشرقي المغربي، إلا أنها لا تمكننا من تبين واضح للصلات المحتملة بين تشكيل الاتحادية العطاوية ودور عبد الله بن حسين في ذلك، رغم إقرار سبيلمان نفسه - ومن خلال دراسة ميدانية -"بأن مولاي عبد الله بن حسين الشريف الإدريسي استطاع أن يوحد تحت سلطته خلال القرن السادس عشر مجموعة من القبائل البربرية الرحلية التي جمعته وإياها مصالح مشتركة"[131]، وهي مصالح بقيت غامضة حتى بالنسبة لصاحب هذا الرأي.

إذا أخذنا بالمعطيات التي توفرها الروايات المحلية نجد أن تشكيل الاتحادية العطاوية جاء استجابة طبيعية للأوضاع الاجتماعية والقبلية لهذه الاتحادية، وفي مقدمتها تطلعها الدائم نحو المراعي الجبلية الشتوية. وبحكم المزاحمة المحتملة للقبائل الجبلية لهذا التطلع، لعبت الزاوية المصلوحية دورا أساسيا في تسهيل مرور آيت عطا نحو الشمال بسبب ما كانت تتوفر عليه من سمعة روحية ووزن معنوي لدى تلك القبائل الجبلية المتحكمة في تلك الممرات.

في الواقع، لم تكن هذه المكانة التي حظيت بها الزاوية المصلوحية بهذه المجالات إلا تزكية طبيعية لسمعة الأمغاريين التقليدية بمناطق الأطلس الكبير الشرقي، حيث تواجدت زاوية آسول منذ ق15م، وشكلت القبائل المتحكمة في الممرات الجبلية عصبتها القبلية (آيت حديدو وآيت يزدي وآيت مرغاد). وبالتالي اعتمدت آيت عطا على ما كان للأمغاريين من نفوذ بين هذه القبائل للمرور نحو المراعي الشتوية[132].

تزامن نجاح الزاوية المصلوحية في هذا الدور مع استعادة حلف آيت عطا لنموه من جديد، لذلك ترسخ في الاعتقاد المحلي بأن تشكيل هذا الحلف ما هو إلا «مبادرة مباركة من شريف تامصلوحت الذي، أبى إلا أن يتحمل وزر الاتحادية العطاوية وأعمالها

---

130 - نفسه.

131 - سبيلمان، ن.م، ص 69.

132- أثبتت الأحداث اللاحقة أن هذه القبائل ظلت في نزاع دائم حول استغلال هذه المراعي وظل دور الأمغاريين حاسما في خلق التوازن بين المجموعتين.

الفوضوية، بعد أن امتنع عن دعمها كل الأولياء». لذلك تمت مكافأة شيخ الزاوية بولاء مطلق وبخدمة طوعية من سائر مكونات الاتحادية، كما جازته بإقامة العديد من المواسم والمزارات بالكثير من المراكز العطاوية، كتازرين وأزيكور ...وقدم شرفاء تامصلوحت عن غيرهم من المرابطين والأشراف، بل لا تستكمل مراسيم تنصيب شيخ الاتحادية إلا بوجود شريف من الزاوية يزكي شرعية التسيير بها.